

جامعة إسطنبول
معهد العلوم الاجتماعية
قسم اللغات الشرقية وآدابها
اللغة العربية وآدابها

رسالة الماجستير

دراسة مقارنة لشعر الصعاليك في العصر الجاهلي
والعصر الأموي

مرام محمد نور الشاوي
2501191224

المشرف
الدكتور إبراهيم شعبان

إسطنبول - 2022

الخلاصة

دراسة مقارنة لشعر الصعاليك في العصر الجاهلي والعصر الأموي.

مرام الشاوي

الصعلوك في اللغة هو الفقير الذي لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة، كان الصعاليك إحدى طبقات المجتمع الذين ألقى الضوء على نشاطهم الأدبي في العصر الجاهلي على الرغم من سلوكياتهم وتشردهم، وتلاشت تلك الطائفة في عصر صدر الإسلام، ثم عادت للظهور في العصر الأموي بصورة حديثة، فلم يقتصر نشاطها على السلب والنهب، بل تعدى ذلك إلى الانضمام إلى الحركات السياسية التي نشأت في العصر الأموي والثورة على الدولة، وتناولت هذه الدراسة أدب الصعاليك في العصرين الجاهلي والأموي من حيث البنية والمحتوى.

أتبع في هذه الدراسة المنهج الوصفي الكيفي، وقد سعينا إلى الاطلاع على الدراسات التي تناولت تراث الصعاليك الشعري، ثم بدأنا بجمع مادة البحث، لنوضح مفهوم الصعلكة والفتك، وأسباب ظهورها في العصر الجاهلي وامتدادها إلى العصر الأموي، والوقوف على أشعار الصعاليك في العصر الجاهلي والعصر الأموي، والمقارنة من حيث البنية والمحتوى الشعري، وبيان أوجه التشابه والاختلاف في البنية والمحتوى الشعري لدى صعاليك العصرين الجاهلي والأموي.

وكان من أهم نتائج هذه الدراسة أن سبب ظهور الصعلكة هو الظلم والحرمان اللذان عانى منهما صعاليك الجاهلية والأموية، وظهر ذلك في أشعارهم، ومن النتائج أيضاً ظهور موضوعات شعرية استحدثها صعاليك العصر الأموي لم تكن موجودة عند صعاليك الجاهلية، نتيجة نشأة ظروف مختلفة عن العصر الجاهلي، أشهرها وصف السجون. وكذلك ظهر اختلاف في اللغة والألفاظ بين شعر شعراء الصعاليك في العصرين المدروسين نتيجة العوامل الدخيلة، كما تبين أن أشعار صعاليك الأموية طبعت بأغلب الصفات التي كانت عند صعاليك الجاهلية، فجاءت أشعار الصعاليك في العصرين الجاهلي والأموي في الغالب على شكل مقطوعات، كما أهملت فيها المقدمات الطللية، ووصف الرحلة، والتشرد، والصحراء، وكذلك اتصفت تلك الأشعار بالوحدة الموضوعية.

الكلمات المفتاحية: العصر الجاهلي، العصر الأموي، الصعاليك، شعر، مقارنة.

ÖZ

CÂHİLİYE VE EMEVÎ DÖNEMLERİ YAĞMACI ŞAİRLERİN ŞİİRLERİNİN KARŞILAŞTIRILMASI

Maram ALSHAWI

Yağmacı, Cahiliye dönemindeki başıboş davranışlarına rağmen edebiyatlarından söz ettiren bir kitledir. Sadrül- İslam döneminde yok olan bu kitle Emevî döneminde yeniden ortaya çıkmıştır. Yağma ve soygunculuğun yanı sıra Emevî dönemindeki siyasi propagandalarıyla da ön planda yer almıştır. Yağmacı şairlerinin şiirleri Cahiliye toplumu içinde bulunan ve zorluk çeken bir kitlenin bireysel kimliğini temsil eden derin bir edebiyattır. Yağmacılık aslında Cahiliye Dönemi'ne ait bir eylem olmasına rağmen İslami dönem başta olmak üzere Emevî ve Abbâsî dönemlerine kadar devam etmiştir. Bu tez çalışmasında da Cahiliye ve Emevî dönemlerinde görülen Yağmacı şairlerinin şiirleri yapı ve içerik bakımından incelenmiştir.

Çalışma nitel bir araştırma olup veriler belgesel tarama yöntemiyle analiz edilmiştir. Yağmacı şiiri ve geleneğini konu alan çalışmalar incelenerek yeni bir içerikle ortaya konulmaya çalışılmıştır. Bu çerçevede Cahiliye döneminde ortaya çıkan "sa'leke" hareketi, bu hareketin Emevî dönemine kadar devam etmesinin sebepleri, Cahiliye ve Emevî dönemleri Yağmacı şiirlerinin içerik ve yapısı ortak, benzer ve farklı yönler ortaya konarak karşılaştırılmaya çalışılmıştır.

Bu çalışmanın en önemli sonuçlarından biri Yağmacılık hareketinin ortaya çıkma ve Emevî dönemine kadar devam etme sebebinin Yağmacı şairlerin yaşadıkları zulüm ve haksızlık olmasıdır. Aynı şekilde Cahiliye dönemi koşullarından farklı koşulların ortaya çıkması sebebiyle hapis hayatını tasvir gibi yeni konular Emevî şiirlerinde işlenmiş olmasıdır.

Yağmacı şairlerin dili sade olup sanat endişesi yoktur. Her ne kadar Emevî şiirleri genel olarak Cahiliye döneminin özelliklerini taşısa da Cahiliye dönemi sa'âlik şairlerinin dili Emevî dönemi Yağmacı şairlerine göre daha sert ve garîb kelimeler içerir. Emevî dönemi Yağmacı şairlerinin dili birkaç şair dışında basit ve anlaşılırdır.

Anahtar kelimeleri: Cahiliye dönemi, Emevî dönemi, Yağmacı, Şiir, Karşılaştırma.

المقدمة

إن الصعاليك فئة منبوذة من المجتمع منذ نشأتهم في العصر الجاهلي، ولم تعترف بهم القبائل، إما لتمردهم على قبائلهم والمطالبة بحقوقهم، أو لجناياتهم وفتكهم بأبناء قبيلتهم أو أبناء القبائل الأخرى، وكان المجتمع القبلي ينفي العناصر الغريبة التي تنشأ فيه، ونتيجة لذلك أسس صعاليك العصر الجاهلي طوائفهم التي امتدت إلى باقي العصور، ولا شك أن هذه الظاهرة خفتت في العصر الإسلامي، إلا أنها عادت إلى الظهور في العصر الأموي بصورة مشابهة لما كانت عليه في العصر الجاهلي، لكن مع وجود بعض الاختلاف نتيجة اختلاف الظروف السياسية والاجتماعية بين العصرين الجاهلي والأموي.

إن طبيعة المجتمع الجاهلي القائم على التمييز بين أفرادهِ وسيادة كبار القوم كانت سبباً في هضم حقوق الطائفة الضعيفة في المجتمع، فقد كانت سياسة هذا المجتمع قائمة على العصبية القبلية، مما دفع هذه الجماعة المحرومة إلى عدم قبول الذل وتفضيل الكرامة على العيش تحت إمرة كبارها، فاتخذت هذه الطائفة الصلعة طريقاً لها، فسكنت الصحاري والوديان والجبـال من أجل الحفاظ على حريتها والتخلص من العبودية.

وبذلك نشأت طائفة الصعاليك، وقطاع الطرق والفتاك واللصوص، وامتهنوا الصلعة والفتك، واتخذوا من السلب والنهب وسيلة للبقاء والدفاع عن الذات، فالصعاليك منذ الجاهلية تملدوا على أعراف قبائلهم وخرجوا على القوانين التعسفية، وقد استمرت الصلعة إلى ما بعد العصر الجاهلي، لكنها خفتت في العصر الإسلامي قبل عودتها للبروز في العصر الأموي نتيجة التغيرات السياسية والاجتماعية التي أيضاً ظلمت بعض الفئات من المجتمع، فخرج هؤلاء الصعاليك في العصر الأموي باحثين عن العدل وعن حقوقهم.

هدفنا من البحث مقارنة أشعار الصعاليك في العصر الجاهلي والعصر الأموي من حيث البنية والمحتوى، وفي إطار هذا الهدف سنجيب عن الأسئلة التالية: ما أسباب ظهور الصعاليك في العصر الأموي؟ وما هي أسباب امتدادهم إلى العصر الأموي؟ وما هي أهم موضوعاتهم الشعرية؟ وما التغيرات التي طرأت على موضوعاتهم؟ وهل حافظت هذه الفئة على خصائصها أو ظهر فيها التجديد؟ وما هي الأمور المتشابهة والمختلفة؟ وما هي العوامل التي تقف وراء هذا التشابه والاختلاف؟ وما هي الموضوعات المستحدثة في أشعار صعاليك العصر الأموي؟ وسنحاول أن نجيب عن هذه الأسئلة في هذه الرسالة، فعندما نقارن نجد التشابه والاختلاف بين شعر صعاليك العصرين الجاهلي والأموي، ويستطاع بهذه الدراسة أن يُعرف مدى تأثير صعاليك العصر الأموي من شعر صعاليك العصر الجاهلي.

اتبعنا المنهج الوصفي الكيفي في بحثنا، وقسمنا البحث إلى مدخل وثلاثة فصول، الفصل الأول بعنوان الصعلكة في العصر الجاهلي، جمعنا فيه ما استطعنا من معلومات عن أسباب ظهور الصعاليك في العصر الجاهلي، وطوائف الصعاليك في العصر الجاهلي، وأهم الصعاليك في العصر الجاهلي الذين أوردنا أشعارهم في الفصل الثالث، وأبرز صفاتهم، وبيننا خصائص شعر الصعلكة وموضوعاته في العصر الجاهلي، وأشرنا إلى الظواهر الفنية في شعر الصعاليك في العصر الجاهلي.

أما في الفصل الثاني الذي خصص للصعلكة في العصر الأموي، فقد تحدثنا عن أسباب امتداد الصعلكة إلى العصر الأموي، وطوائف الصعاليك في العصر الأموي، وأهم الصعاليك في العصر الأموي الذي أوردنا أشعارهم في الفصل الثالث، كما بينا أبرز صفات الصعاليك في العصر الأموي، وأهم موضوعاتهم الشعرية، وأشرنا إلى الظواهر الفنية في شعر الصعاليك في العصر الأموي.

ثم انتقلنا إلى الفصل الثالث وكان بعنوان مقارنة بين أشعار الصعاليك في العصر الجاهلي وأشعارهم في العصر الأموي، والذي تحدثنا فيه عن المقارنة بين الموضوعات الشعرية لدى صعاليك الجاهلية والأموية من حيث البنية والمحتوى الشعري، وأوردنا في هذا الفصل أهم خصائص البنية والمحتوى، وبيننا أوجه التشابه والاختلاف بينهما، وكذلك تحدثنا عن الموضوعات التي أهملها صعاليك العصر الأموي، والموضوعات المستحدثة في العصر الأموي.

وفي هذا المقام أشكر الله تعالى وافر الشكر على توفيقه لي وإعانتني على إتمام رسالتي العلمية، ثم أتوجه بخالص الشكر وعظيم الامتنان إلى الأستاذ الفاضل المشرف الدكتور إبراهيم شعبان لتكريمه بالإشراف على الأطروحة، ولما قدمه لي من نصائح ثمينة ساهمت في إخراج هذه الدراسة، وكان نعم السند بجميل صبره وحسن رأيه ومتابعته، فلم يدخر جهداً في مساعدتي وتوجيهي وإرشادي نحو الطريق القويم في هذه الأطروحة، كما وأتقدم بالشكر الوافر إلى الأستاذ الدكتور حسين يازيجي، والدكتور عبد الستار الحاج حامد لقبولهما قراءة ومناقشة هذا العمل المتواضع أمام علمهما الغزير.

وأسعى بشكري الجزيل وامتناني من قلب فاضل بالمحبة والمودة والاحترام لوالدي وأخوتي على ما بذلوه لي من جهد ورعاية ودعم ومسانده لكي أصل إلى هنا وأتم هذه الأطروحة، وأتوجه بخالص شكري وامتناني إلى كل من أخذ بيدي وساعدني في إتمام هذه الأطروحة.

Maram ALSHAWI

İSTANBUL, 2022

المحتويات

II.....	الخلاصة.....
III.....	ÖZ.....
IV.....	المقدمة.....
VI.....	المحتويات.....
1.....	المدخل.....

الفصل الأول

الصعلكة في العصر الجاهلي

11.....	1. 1 . الصعلكة في العصر الجاهلي.....
11.....	1. 1. 1. أسباب ظهور الصعاليك في العصر الجاهلي.....
12.....	1. 1. 2. طوائف الصعاليك في العصر الجاهلي.....
13.....	1. 1. 3. أهم الصعاليك في العصر الجاهلي.....
22.....	1. 1. 4. أبرز صفات الصعاليك في العصر الجاهلي.....
23.....	1. 1. 5. شعر الصعلكة وموضوعاته في العصر الجاهلي.....
29.....	1. 1. 6. الظواهر الفنية في شعر الصعاليك في العصر الجاهلي.....

الفصل الثاني

الصعلكة في العصر الأموي

35.....	1. 2 . الصعلكة في العصر الأموي.....
35.....	1. 1. 2. أسباب امتداد الصعلكة إلى العصر الأموي.....
37.....	1. 2. 2. طوائف الصعاليك في العصر الأموي.....
38.....	1. 2. 3. أهم الصعاليك في العصر الأموي.....

4. 1. 2. أبرز صفات الصعاليك في العصر الأموي.....47
5. 1. 2. شعر الصعلكة وموضوعاته في العصر الأموي.....47
6. 1. 2. الظواهر الفنية في شعر الصعاليك في العصر الأموي 53

الفصل الثالث

مقارنة بين شعر صعاليك العصر الجاهلي والعصر الأموي

1. 3. من حيث البنية.....57
1. 1. 3. المقطوعات الشعرية.....58
2. 1. 3. الوحدة الموضوعية.....60
3. 1. 3. اللغة والألفاظ.....63
4. 1. 3. النزعة القصصية.....68
5. 1. 3. البنية الموسيقية.....71
2. 3. من حيث المحتوى.....74
1. 2. 3. الفقر.....74
2. 2. 3. التشرد والتأبد.....79
3. 2. 3. الهجاء والتهديد.....82
4. 2. 3. مصاحبة حيوان الصحراء.....86
3. 3. الموضوعات التي أهملها صعاليك العصر الأموي.....89
1. 3. 3. سرعة العدو.....89
2. 3. 3. شعر المراقب.....92
4. 3. الموضوعات الشعرية المستحدثة في العصر الأموي.....94
1. 4. 3. وصف السجون وحياتها.....95
2. 4. 3. مدح العمال والخلفاء والمتمردين.....97
3. 4. 3. الحنين إلى الاستقرار.....98
4. 4. 3. التوبة والاعتذار والاستغفار.....102

104.....	الخاتمة
107.....	فهرس المصادر



المدخل

لقد عاش المجتمع العربي قبل الإسلام في ظروف اجتماعية قاسية ومجتمع يسوده البناء القبلي، وهذا المجتمع والفوارق الطبقية بين أبنائه شكل طبقة فقيرة محرومة عانت الظلم والفقر والحرمان، فمن ذلك ولدت طائفة الصعاليك لتعبر عن الواقع وتدافع عن حقوق أبنائها.

تم اختيار شعر الصعاليك والفتاك في العصر الجاهلي والعصر الأموي ليكون محور الدراسة لما له من أهمية أدبية وفنية، ولأن شعر الصعاليك في العصر الجاهلي قريب من فطرة اللغة العربية، وموضوع دراستنا يجمع عصرين أدبيين كانا من أغزر العصور الأدبية شعراً، فإن الصعاليك طائفة مهمة من طوائف الشعر منذ نشأتها، فقد شكلت طائفة الصعاليك في العصر الجاهلي دوراً مهماً في الأدب العربي في ذلك العصر إلى جانب شعراء ذلك العصر، وقد ضعفت في العصر الإسلامي نتيجة الأحكام الدينية التي بدأت في عصر صدر الإسلام، ثم امتدت هذه الطائفة إلى العصر الأموي الذي كان يمثل عصر ازدهار أدبي وفكري وسياسي، فمن ذلك انطلق صعاليك العصر الأموي إما بالحفاظ على البنية والمحتوى الشعري الذي كان في العصر الجاهلي أو بتجديد وتطوير البنية والمحتوى.

وإن من الدراسات السابقة التي تتعلق بموضوع الصعاليك والتي شكلت جزءاً من مصادر هذه الدراسة، منها كتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني الذي كان مرجعاً مهماً عن الصعاليك وسيرتهم في كلا العصرين الجاهلي والأموي، وكتاب "الأدب الجاهلي" للدكتور شوقي ضيف، وكتاب "الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي" للدكتور يوسف خليف، وكتاب "الشعراء الصعاليك في صدر الإسلام والعصر الأموي" للدكتور حسين عطوان، وكتاب "شعر الصعاليك منهجه وخصائصه" للأستاذ عبد الحليم حنفي، وكتاب "الصعاليك في العصر الأموي" للأستاذ محمد رضا مروة.

هذه أهم الدراسات التي تناولت شعر الصعاليك في العصر الجاهلي والعصر الأموي، لكن الدراسات المقارنة بين عصرين وبخاصة بين العصر الجاهلي والعصر الأموي في هذا الصدد قليلة، لذلك سنحاول أن نقارن بين أشعار الصعاليك من حيث البنية والمحتوى الشعري في هذين العصرين، فهدفنا دراسة الموضوعات الشعرية عند الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي والعصر الأموي، ونقارن بين أشعار الصعاليك من حيث البنية والمحتوى في العصرين الجاهلي والأموي. فالدراسة تهدف ضمن المنهج الوصفي الكيفي إلى مقارنة موضوعات أشعار الصعاليك بين العصر الجاهلي والعصر الأموي من حيث البنية

والمحتوى، مع بيان أسباب امتداد هذا النوع من الشعر إلى العصر الأموي، وأن نبين أهم الموضوعات المشتركة في شعر شعراء الصعاليك في العصرين المدروسين، والموضوعات التي أهملها صعاليك الأموية، ثم الموضوعات التي استحدثها صعاليك العصر الأموي.

وسيتناول البحث معنى الصعلكة، ومن هو الصعلوك، وأسباب نشأة هذه الظاهرة، وما الذي أدى إلى ظهورها؟ فهل كان السبب المتجمع القبلي أو الفرد نفسه؟ أو الفقر والمشكلات الاقتصادية؟ وما هي أهم موضوعاتهم الشعرية؟ وما التغيرات التي طرأت على موضوعاتهم؟ وهل حافظ شعر هذه الفئة على خصائصه أو ظهر فيها التجديد؟ ما هي الأمور المتشابهة والمختلفة؟ وما هي الموضوعات المهملة والمستحدثة في أشعار الصعاليك في العصر الأموي؟ وسنحاول أن نجيب عن هذه الأسئلة في هذه الرسالة، وأن نحدد عن طريق المقارنة التشابه والاختلاف بين شعر صعاليك العصرين، ويستطاع بهذه الدراسة أن نعرف مدى تأثير صعاليك العصر الأموي من العصر الجاهلي.

سبب اختيار البحث:

الشعر الجاهلي هو أقدم الشعر العربي الذي وصل إلى عصرنا، وترك أثرا كبيرا في الشعر العربي ونسق القصيدة في العصور اللاحقة، فأردنا أن نكشف عن جانب مهم من الشعر الجاهلي، وهو شعر الصعاليك الذي كان له أثر في المجتمع الجاهلي والذي امتد إلى ما بعده من العصور.

وكذلك من أسباب اختيار هذا البحث الرغبة في الخوض في تفاصيل موضوعات الشعر لدى طائفة الصعاليك، ومحاولة الكشف عن أهم الموضوعات لديهم، وأبرز السمات الشعرية المتميزة في شعرهم، والبحث عن أوجه التشابه والاختلاف بين شعر الصعاليك في العصرين الجاهلي والأموي، فقد تغيرت ملامح الشعر بشكل عام بين العصر الجاهلي والعصر الأموي.

اخترنا فئة كانت مميزة في العصر الجاهلي هي فئة الصعاليك، كُتبت عنهم بعض الأبحاث وبعض الفصول في الكتب، لهم أشعارهم ومميزاتهم وخصائصهم، لهم أسلوب خاص في حياتهم وفي أشعارهم، كانت للبيئة الجغرافية والأوضاع الاجتماعية أثر في نشأتهم واستمرارهم في العصر الجاهلي، فلم يلقوا من المجتمع الاهتمام والعناية.

وما جعلنا نتطرق إلى هذا الموضوع هو ارتباطه بالبطولة، إن ظاهرة الصعلكة قد أنجبت لنا أبطالاً كانوا أبناء الصحراء عاشوا في جبال الحجاز وفي جبال اليمن والطائف ووديانهما، يتحملون مشقة جبالها وقسوة بردها وحرها، لكي يعيشوا كرماء وشرفاء، ليس لأحد عليهم حكم أو سلطة، ولا هم بحاجة لغيرهم باحثين عن لقمة عيشهم بأيديهم.

إن التركيز على شعر الصعاليك بما فيه من ألفاظ ومعان، يساعدنا على التعرف على الواقع الجاهلي الذي كانت تحكمه العصبية القبلية ويسوده الأغنياء، وعلى توضيح الأخلاق النبيلة التي اتصف بها الصعاليك من خلال أشعارهم.

ولدينا رغبة في الكشف عن موضوعات شعر الصعاليك بين العصر الجاهلي والأموي وتفرّد موضوعاتهم وتنوعها، وكذلك توضيح صورة الصعاليك في العصرين الجاهلي والأموي، وأشهر صعاليك العصرين الجاهلي والأموي.

أهمية المقارنة بين شعر الصعاليك في العصرين الجاهلي والأموي:

إن شعر الصعاليك له أهمية بالغة، فهو ظاهرة فريدة في الأدب العربي، تحتاج إلى دراسة واهتمام، إنه شعر مختلف، ملتزم بنمط معين، له طبقة خاصة من الشعراء، فهو يضاف إلى ما وصلنا من الشعر الجاهلي ويزيده ثراء وتقديراً، ويوضح لنا حال هؤلاء الصعاليك، ويبين لنا كيف كانت الأوضاع في العصر الجاهلي، ويزيل الغبار على الحياة الاجتماعية لهم، ويبين أسباب نبذهم من المجتمع الجاهلي والأموي، وأهمية شعر الصعاليك تكمن في تصوير ما عاشه الصعاليك في الصحراء وموقف مجتمعهم منهم.

تكمن أهمية المقارنة بين شعر الصعاليك في العصر الجاهلي والعصر الأموي في بيان نقاط التشابه والاختلاف في شعر الصعاليك في العصر الجاهلي والعصر الأموي، ومدى تأثير الظروف المختلفة في شعر كلا صعاليك العصرين الجاهلي والأموي، ومعرفة المزايا التي امتاز بها شعراء صعاليك العصر الجاهلي عن العصر الأموي في صفاتهم الشخصية التي ظهرت في أشعارهم.

أهمية دراسة شعر الصعاليك:

إن دراسة شعر الصعاليك مهمة، لأنها تبين لنا أسباب نشأة شعر الصعاليك وكيفية تطوره واختلافه عن نهج القصيدة الجاهلية، وذلك بتخليه عن الوقوف على الأطلال وذكر المحبوبة إلى تضمنه المغامرات والنهب والسلب، وتكن الأهمية أيضاً في دراسة ما صورته لنا الصعاليك في مقطوعاتهم الشعرية، ومعرفة سبب ميل الشعراء الصعاليك إلى المقطوعات، إن شعر الصعاليك بحق يشكل ثروة تاريخية وأدبية، ويعبر لنا عن معاني الحياة، لذا ينبغي أن ينال حظه من الدراسة والاهتمام.

ومن الناحية الفنية فإن شعر الصعاليك خرج عن نمط البنية التقليدية للقصيدة العربية التي عرفت في العصر الجاهلي، فقد اختلف شعرهم عن القصيدة العربية شكلاً ومضموناً، بمعنى أن شعرهم جاء مخالفاً لما جاءت به القصيدة التقليدية، وشعر الصعاليك له أهمية بارزة في النقد الأدبي بفضل ما تميز به من قوة وشدة وجزالة.

الحياة السياسية والاجتماعية في العصر الجاهلي:

إن السلطة السياسية في العصر الجاهلي كانت بيد رؤساء القبائل في كل قبيلة من قبائل العرب، فكل قبيلة كانت تخضع لأمر سيدها وإرادته في السلم والحرب، وكان هذا النظام هو النظام السائد عند البدو في منطقة نجد وتهامة والحجاز، فلم تكن هنالك حكومة تنفذ على الجميع القانون وتنتشر الأمن والطمأنينة بين جميع الطبقات، فكل قبيلة كانت بمثابة دولة مستقلة، ترعى أبنائها وتدافع عنهم وتحميهم، وكان أبناء القبيلة الواحدة يتعاونون في الحفاظ على شرف هذه القبيلة، وحمايتها والامتثال لأمر سيد القبيلة، وكان على القبيلة أن تحمي جميع أفرادها وأن تدافع عنهم وتأخذ بحقوقهم وتنصفهم إن أصابهم ضرر أو مس كرامتهم سوء، وكان هذا النظام القبلي بين البدو سبباً في انتشار الفوضى وانعدام الأمان في المجتمع، القبيلة كانت تحافظ على كل فرد من أفرادها، وتحميه وفق إرادتها ورغبتها، ما دام ذلك الفرد يسير وفق القوانين التي سنتها، فإذا ظهر منه سلوك لا ترضاه أو لا توافق عليه خلعتة ونفته وطردته من بينها¹.

إن الفرد في القبيلة " كان يتأرجح بين قطبين: فردية تدفعه إلى رفع كل ضغط وتثبيت الحقوق الدائمة لنفسه تجاه الحقوق الجماعية، وتعلق من ناحية أخرى بجماعته بصورة عميقة قد تصل إلى حد

¹ علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، دار التراث، 1991، ص 62 - 65.

التضحية بالنفس، فالمجتمع العربي إذاً يمثل فوضى يخفف من شدتها في كل درجة من درجات السلم الاجتماعية حكم الأقلية عند رؤساء الأسر والأفخاذ والقبائل الذين تتفاوت درجات نفوذهم².

أما الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي فقد كونت طبقات بين أفراد القبيلة الواحدة، وهم أبناؤها الذين يربط بينهم النسب والدم، وهم عماد القبيلة، وطبقة العبيد وهم الرقيق الذين تم جلبهم من البلاد المختلفة وخاصة بلاد الحبشة، وكذلك الموالي وهم العتقاء، ويدخل معهم الخلاء الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جنائياتهم وجرائمهم، وكان يطغى على أفراد القبيلة العصبية والنصرة، فكل فرد من المجتمع يتعصب لقبيلته، وكانت القبيلة تحميه وتطالب بدمه إذا جنى عليه أحد، ولكل قبيلة سيد هو مرجعها في الشدائد، ولهذه القبيلة شاعر أو أكثر يكون حاضراً ليتغنى ويتفاخر بمنجزاتها وشجاعتها وكرمها، ويلقي أشعاراً يمجدونها فيه ويعلي من شأنها، أو ينافر خصومها ويهجو أعداءها، فقد كان يبرز العداء والتنافر بين بعض القبائل، فنقيم الحروب للانتقام، وتشن الغارات، ويحدث النهب والسلب.

وكان للمرأة في المجتمع الجاهلي شأن، فقد يبدأ الشاعر قصيدته بذكرها والتغني بجمالها وحسبها ونسبها، وكانوا يفخرون بنسبتهم إلى أمهاتهم وكذلك يفخرون بنسبتهم إلى آباءهم، وكان بعض العرب يكره أن امرأته تلد له بنتاً، فكانت تسود المجتمع الجاهلي عادة وأد البنات خشية الفقر أو العار، وكان عرب الجاهلية يلهون بالخمير والقمار وغناء القيان، ولكن وجدت في مجتمعهم الأخلاق الفاضلة، فكانوا يمدحون بالشرف والأخلاق الرفيعة والشجاعة والوفاء وحماية الجار والجود والكرم، وممن اشتهر بالسخاء والجود عند العرب وضرب المثل به حاتم الطائي³.

الحياة السياسية والاجتماعية في العصر الأموي:

إن الحياة السياسية في العصر الأموي ارتبطت بظهور الكثير من الأحزاب والتيارات السياسية والتي كان لها أثر في كيان الدولة الأموية، وقد تطورت الحوادث بعد مقتل آخر خلفاء عصر صدر الإسلام علي بن أبي طالب، فتحوّلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان والبيت الأموي، ورأى بعض الناس أن الأمويين غير جديرين بالحكم، لأنهم ابتعدوا عن منهج الإسلام القويم، فسخط عليهم القراء وأهل الورع والنقى، فظهرت الثورات على بني أمية في أماكن مختلفة من الدولة، ومن هذه الثورات ثورة المرجئة في

² رجب بلشير، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، تعريب: إبراهيم كيلاني، دمشق، دار الفكر، ص35.

³ محمد خفاجي، الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، بيروت، دار الجيل، ط1، 1992، ص 37 - 41.

خرسان بقيادة الحارث بن سريج، كما نشأت المعارضة لبني أمية في الحجاز والعراق، فهما يعدان من أهم المراكز في نشأت هذه المعارضة ونشطت، وبدأت المعارضة في الحجاز عند محاولة معاوية بن أبي سفيان إسناد الحكم من بعده لابنه يزيد وأخذ البيعة من أهل الولايات.

لقد أبى بعض أبناء كبار الصحابة أن يبايعوا يزيداً، فلما ولي خلافة شدد عليهم، وكان منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب فبايعه، أما عبد الله بن الزبير والحسين بن علي فخرجا إلى مكة، واستدعى أهل الكوفة الحسين لمبايعته، فخرج الحسين بن علي وقتل بكرلاء في العراق، وقضى بني أمية على ابن الزبير في مكة، ودخل الحجاز في سلطة بني أمية، وكانت الخصومة الحقيقية لبني أمية تكمن في العراق، فكان فيها طائفة الخوارج في مدينة البصرة والشيعية في الكوفة، وكانت الدولة الأموية قاسية في معاملة الرقيق مما جعلهم يثورون مراراً على الدولة الأموية، ونتجت عن ذلك الحروب والفتن الداخلية التي كانت سمة الحياة السياسية في ذلك العصر، وكذلك ظهرت الانقسامات بين الشعب وظهرت الأحزاب السياسية، وبرز التحارب والتناحر، كل ذلك ترك أثراً في الحياة الاجتماعية.

تطورت الحياة الاجتماعية في العصر الأموي واختلفت عما كانت عليه من قبل، نتيجة الفتوحات في ذلك العهد، وكذلك التحضر بعد أن هاجر العرب من الجزيرة العربية ونزلوا البلاد التي كانت تحت حكم الفرس والروم، فتأثروا بالشعوب التي خالطوها، وازدادت الأموال والغنائم من الحروب، وانتشر الترف في ذلك العصر، ومن ذلك بناء القصور، واستخدام أواني الفضة والذهب في مختلف الأطعمة، ولبس الحرير المزركش، والتعطر بأجود المسك والطيب، وكانت طبقة الموالى ينعمون بهذا الترف نتيجة اكتظاظهم في القصور، وقد ورث الناس في ذلك العصر أمصاراً جديدة، وعاشوا في القصور والدور واستفادوا من منجزات الحضارات اليونانية والرومانية والفارسية، واعتنوا ببناء المساجد والقصور والحدائق، وكذلك امتد هذا الترف إلى النساء والجواري، فكن يتقنن في التزين والتطيب، ولبس الحلي واللؤلؤ⁴.

⁴ شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي: العصر الإسلامي، مصر، دار المعارف، ط7، ص 182 - 199.

مفهوم الصعلكة:

الصعلكة لغة واصطلاحاً:

وردت ألفاظ أخرى تشارك الصعلكة في مدلولها اللغوي، ومعناها العرفي الذي يدل على اللصوصية وقطع الطرق، وتعددت هذه الألفاظ فمنها: فاتك، ولص، وخليع، وذئب، وشاطر، وشيطان، والمتشرد، والعداء، والرجلي، وشذاذ العرب. وأشهرها: الصعلوك والفتاك، وسنحاول تقديم تعريف لكلمتي الصعلكة والفتك اللتين استخدمتا أكثر من غيرهما، وذلك من خلال الرجوع إلى معجم لسان العرب الذي يمثل خلاصة المعاجم العربية التي سبقته، ومن خلال الرجوع إلى بعض كتب النقاد العرب الذين تناولوا هذا الموضوع في كتبهم من أمثال: شوقي ضيف، ويوسف خليف.

معنى الصعلكة:

صعلك في لسان العرب:

ورد في لسان العرب أن الصعلوك هو " الفقير الذي لا مال له، ولا اعتماد. وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك.

وقال حاتم طيء:

غَنِينَا زَمَانًا بِالنَّصْعَلِكِ وَالْغِنَى فَكُلًّا سَقَانَاهُ، بِكَأْسَيْهِمَا، الدَّهْرُ
فَمَا زَادَنَا بَغْيًا عَلَى ذِي قَرَابَةٍ غِنَانَا، وَلَا أَرْزَى بِأَحْسَابِنَا الْفَقْرُ

"وتصعلكت الإبل: خرجت أوبارها وانجردت وطرحتها. ورجل مصعلك الرأس: مدوره. ورجل مصعلك الرأس صغيره، وأنشد:

يُخَيِّلُ فِي الْمَرْعَى لَهْنَ بِشَخْصِهِ مُصْعَلُكَ أَعْلَى قُلَّةِ الرَّأْسِ نَفَقُ

"وقال شمر: المصعلك، من الأسنمة، الذي كأنما حدرجت أعلاه حدرجة، كأنما صعلكت أسفله بيدك ثم مطلته صعداً أي رفعته على تلك الدملكة وتلك الاستدارة؛ وقال الأصمعي في قول أبي ذؤاد يصف خيلاً:

قَدْ تَصَعَّلَكُن فِي الرَّبِّيعِ، وَقَدْ قَرَّرَعَ جَلَدَ الْفَرَأْنِضِ الْأَقْدَامِ

قال: تَصَعَّلَكُن دَقَّقْنَ وطار عفاؤها عنها، وَالْفَرِيضَةُ موضع قدم الفارس. وَقَالَ شَمِرٌ: تَصَعَّلَكِتِ الْإِبِلَ إِذَا دَقَّتْ قَوَائِمُهَا مِنَ السِّمَنِ. وَصَعَّلَكُهَا الْبَقْلُ وَصَعَّلَكَ الثَّرِيدَةُ: جعل لها رأساً، وقيل: رفع رأسها. التصعلك: الفقر. وصعاليك العرب نؤبانها. وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه⁵.

الصعلكة عند يوسف خليف:

تناول يوسف خليف مفهوم الصعلكة في "كتابه الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي"، وعرف الصعلوك قائلاً: " الصعلوك في اللغة هو الفقير الذي لا مال له يستعين به على أعباء الحياة، ولا اعتماد له على شيء أو أحد يتكئ عليه أو يتكل عليه ليشق طريقه فيها، ويعينه عليها، حتى يسلك سبيله كما يسلكه سائر البشر الذين يتعاونون على الحياة، ويواجهون مشكلاتها يداً واحدة. أو هو -بعبارة أخرى- الفقير الذي يواجه الحياة وحيداً، وقد جردته من وسائل العيش فيها، وسلبته كل ما يستطيع أن يعتمد عليه في مواجهة مشكلاتها. فالمسألة ليست فقراً فحسب، ولكنها فقر يغلق أبواب الحياة في وجه صاحبه، ويسد مسالكها أمامه⁶."

الصعلكة عند شوقي ضيف:

تحدث شوقي ضيف في كتابه "تاريخ الأدب العربي؛ العصر الجاهلي" عن الصعلوك وقال: " الصعلوك في اللغة الفقير الذي لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة، ولم تقف هذه اللفظة في الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصة؛ فقد أخذت تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطرق⁷."

⁵ ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله الكبير، محمد حسب الله، هاشم الشاذلي، القاهرة، دار المعارف، ط1، ج4، ص 2451 - 2452.

⁶ يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، القاهرة، دار المعارف، ط3، ص23.

⁷ شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، القاهرة، دار المعارف، ط22، ص375.

فمن المفاهيم السابقة نجد أن معنى لفظ الصعلوك دل على الفقير الذي لا مال له، والمتجرد للغارات وقطع الطرق نتيجة لحياة الفقر.

الفتاك:

معنى الفتك في لسان العرب:

ورد في لسان العرب أن الفَتَك هو " ركوب ما هَمَّ من الأمور ودعت إليه النفس، فَتَكَ يَفْتِكُ وَيَفْتُكُ فَتُكًا وَفِتْكًَا وَفُتْكًَا وَفُتُوكًا. وَالْفَاتِكُ: الجريء الصَّدر، والجمع الْفُتَّاك. وَرَجُلٌ فَاتِكٌ: جريءٌ. وَفَتَكَ بِالرَّجُلِ فَتْكًَا وَفُتْكًَا وَفِتْكًَا. انتهز منه غِرَّةً فقتله أو جرحه، وقيل: هو القتل أو الجرح مُجَاهَرَةً؛ وكل من قَتَلَ رَجُلًا غَارًا، فهو فَاتِكٌ".

كما أورد قول أبو عبيد: " الْفَتَكُ أَنْ يَأْتِيَ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ وَهُوَ غَارٌّ غَافِلٌ حَتَّى يَشُدَّ عَلَيْهِ فَيَقْتُلُهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَعْطَاهُ أَمَانًا قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعْلِمَهُ ذَلِكَ".

وكذلك أورد صاحب اللسان قولاً للفرّاء في معنى الفتك، قائلاً: "الْفَتَكُ وَالْفُتُكُ الرَّجُلُ يَفْتِكُ بِالرَّجُلِ يَقْتُلُهُ مُجَاهَرَةً، وَقَالَ بَعْضُهُمُ الْفِتْكَ؛ وَقَالَ الْفَرَّاءُ أَيْضًا: فَتَكَ بِهِ وَأَفْتَكَ، وَذَكَرَ عَنْهُ اللَّغَاتُ الثَّلَاثُ. ابْنُ شُمَيْلٍ: تَفَتَّكَ فَلَانٌ بِأَمْرِهِ أَيْ مَضَى عَلَيْهِ لَا يُؤَامِرُ أَحَدًا؛ الْأَصْمَعِيُّ فِي قَوْلِ رُؤَبَةَ:

لَيْسَ امْرُؤٌ، يَمْضِي بِهِ مَضَاؤُهُ ... إِلَّا امْرُؤٌ، مِنْ فَتْكَه دَهَاؤُهُ

والمُفَاتَكَةُ: مَوَاقِعَةُ الشَّيْءِ بِشِدَّةٍ كَالْأَكْلِ وَالشَّرْبِ وَنَحْوِهِ⁸.

⁸ ابن منظور، لسان العرب، ج5، ص 3369.

ومعنى فتك في القاموس المحيط:

الْفَتْكُ: "ركوب ما هم من الأمور ودعت إليه النفس، كالْفُتُوكِ والإِفْتَاكِ. فَتَكَ يَفْتُكُ وَيَفْتِكُ، فهو فَاتِكٌ: جريءٌ، شجاعٌ، فَتَاكٌ وَفَتَكٌ به: انتهز منه فرصة، فقتله أو جرحه مجاهرة، والمفاتكة: المماهرة، ومواقعة الشيء بشدة كالأكل ونحوه، وَتَفَتَكَ بِأَمْرِهِ: مضى عليه لا يؤامر أحداً"⁹.



⁹ مجد الدين الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 8، 2005، ص 950.

الفصل الأول

الصعلكة في العصر الجاهلي

1.1. الصعلكة في العصر الجاهلي:

في هذا الفصل سنتحدث عن الصعلكة في العصر الجاهلي بالتفصيل، وذلك من خلال بيان أسباب ظهور الصعاليك في العصر الجاهلي والحديث عن الطوائف التي كانوا ينتمون إليها، مع ذكر أهم صعاليك هذا العصر، وأبرز صفاتهم، وأشعارهم وما حوته من موضوعات وخصائص.

1.1.1. أسباب ظهور الصعاليك في العصر الجاهلي:

اصطدم صعاليك العصر الجاهلي بمجتمعهم لأسباب حرمتهم من أدنى حقوقهم، فلم يتكيف هؤلاء الصعاليك مع قبائلهم فتخلت عنهم وخلعتهم، وكذلك حرمتهم من حمايتها، فتمرد هؤلاء الصعاليك على واقعهم المأساوي.

ولا شك كانت النتيجة الطبيعية هو فرار الصعاليك من مجتمعهم ليقبضوا لأنفسهم مجتمعاً خاصاً بهم، لكنه كان مجتمعاً فوضوياً، تسوده القوة، هدفه السلب والنهب، ووسيلته الإغارة، فقطعوا الصلة بينهم وبين قبائلهم، وانطلقوا إلى الصحراء، ليشقوا طريقهم في الحياة، يتنقلون من القفار الواسعة إلى أماكن الخصب، فجمع بينهم على اختلاف قبائلهم حياة الفقر والحرمان والتمرد والتشرد والتذمر من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي يؤمن بها أبناء المجتمع الجاهلي، والإيمان بأن الحق للقوي، وأن الضعيف ضائع حقه في المجتمع.

وأيضاً إن لطبيعة الأرض أثر واضح في ظهور حركة الصعلكة، لأن جزيرة العرب كانت تتكون من كثبان رملية، والأودية الخصبة، والواحات النخيلية والجبال الوعرة، وكانت تتميز بشدة الحرارة وقلة الأمطار، وكذلك إن العوامل الاجتماعية وطبيعة البيئة دفعتهم إلى اختيار حياة أخرى تناسب كرامتهم وعزيمتهم بعيداً عن بنية المجتمع وتفاوت الطبقات، والظاهرة المشتركة بينهم ودفعتهم إلى سلك حياة التصعلك هي أنهم جميعاً فقدوا التآلف الاجتماعي.

إذاً هذه الطائفة لها ثلاثة عوامل أدت إلى نشأتها وتطورها واستمرارها: عامل جغرافي، وعامل اجتماعي، وعامل اقتصادي.

2. 1. 1. طوائف الصعاليك في العصر الجاهلي:

"وقد كون الصعاليك عصابات تنتقل في الصحراء، تسرق القوافل، وتغير على سكان البراري؛ لتجني هذه العصابات الرزق لها ولمن يأوي إليها، انضم إليها الصعاليك من مختلف القبائل، ولكن أكثر الصعاليك من الشبان الطائشين الخارجين على أعراف قومهم، ومن الذين لا يبالون ولا يخشون أحداً، صاروا قوة يخشى منها، ويحسب لها حساب، خاصة وفيها شعراء فحول، يحسنون الهجاء ويتقنون فن سلب الأعراض، وفيها مقاتلون شجعان لا يعبئون بالموت، يفنكون بمن يريدون الفتك به.

وخافهم الناس وامتنعوا جهد إمكانهم من التحرش بهم ومعاداتهم، ومنهم من قبل جوار الصعاليك وردَّ عنهم وأحسن إليهم، فاستفاد منهم واستفادوا منه، وقد كان العرب ينفون الخلاء إلى أماكن معينة مثل "حَضَوْضَى"، وهو جبل في الجزيرة العربي، كان الناس في الجاهلية ينفون إليه خلاءها، وقيل: جبل في البحر أو جزيرة فيه، كانت العرب تنفي إليه خلاءها"¹⁰.

وقد عُرف لصعاليك العصر الجاهلي ثلاث طوائف:

- الخلاء والشذاذ الذين نبذتهم قبائلهم وتبرأت منهم لاقترافهم الجرائم، مثل: أبو الطَّمَحان القَيْنِي، حاجز بن عوف الأزدي، وقيس بن الحُدَّادية.

- أبناء الحبشيات السود، وهم الذين نبذهم آبائهم وتخلوا عنهم لعار ولادتهم، مثل: الشنفرى الأزدي، تأبط شراً، السُّلَيْك بن السُّلَكَة، وهم سود كأمهاتهم، ولذلك سمو بأغربة العرب.

¹⁰ جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقى، ط 4، 2001، ج 7، ص 413.

- من اتخذ الصلعة حرفة وصناعة، وهذه الصناعة قد تعم قبيلة كاملة مثل قبيلة هذيل، وقبيلة فهم، اللتان كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف، وقد تخص أحاداً كعروة بن الورد العبسي¹¹.

3. 1. 1. أهم الصعاليك في العصر الجاهلي:

برز عدد من الصعاليك في العصر الجاهلي منهم: عروة بن الورد، تأبط شراً، الشنفرى، الحارث بن ظالم المري، السُّلَيْك بن السلعة، قيس بن الحدادية، حاجز الأزدي، أبو منازل السعدي، الخطيم بن نويرة، فضالة بن شريك بن خويلد الأسدي، صخر الغي الهذلي، الأعم حبیب بن عبدالله الهذلي، أبو الطمحان القيني، أبو خراش الهذلي، عمرو ذي الكلب، المسيب، عمرو بن بركة الهمداني، مرة بن خليف.

ولكن نحن لا نستطيع في دراستنا هذه أن نتناول كل هؤلاء الصعاليك لذلك سنكتفي بذكر الصعاليك الذين سنتناول أشعارهم في الفصل الثالث، وهم: عروة بن الورد، الشنفرى، تأبط شراً، عمرو بن بركة، صخر الغي.

• عروة بن الورد:

"أبو نجد عروة بن الورد بن زيد العبسي، كان شاعراً فارساً وصلوكاً من الصعاليك المقدمين الأجواد"¹².

لقب "بعروة الصعاليك" لأنه كان رئيساً على الصعاليك، فكان يجمع الصعاليك حوله للإغارة، وكان يتولى أمرهم إذا أخفقوا في غاراتهم ويقدم لهم القوت إذا لم يكن عندهم معاش، وكان لشعره تأثير في نفوس قبيلته¹³، وكان زعيماً للتائرين حتى كانوا يلقبونه "أبا الصعاليك"، وذلك لأن عروة ثار على أبيه، فقد كان يؤثر أخاه الأكبر عليه ويهمله، وثار على أخواله وجعل انتساب أمه إليهم عار عليه، وثار على

¹¹ ضيف، العصر الجاهلي، ص 375.

¹² أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تح: إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عباس، بيروت، دار صادر، ج 3، ص 51.

¹³ يحيى التبريزي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، كتب حواشيه: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: أحمد شمس

الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2000، ج1، ص 329.

الأغنياء الذين يكسبون الأموال ويخلون على الضعفاء فهجا بني ناشب هجاء مرأ وهم قبيلة من بني عبس، وكان عروة فائق الشجاعة¹⁴.

وكان يتحلى بكريم الشمائل، وكان يحمي ضعفاء قومه ومرضاهم حتى يبرأ المريض ويقوى الضعيف، وكان عروة شديد الجود والكرم يرى كل شيء شركة بينه وبين الناس، بل أن الناس أحق بقوته منه، فهو لا يترك إخوانه يموتون جوعاً، ويرى طعامه عليه حراماً إن لم يكن لجار منزله طعام، وكان عروة يكره الفقر ويرى الناس شرهم الفقير، وأن الفقير يعيش منكس الرأس وأن في المال المهابة والجلال، وفي الفقر المذلة والهوان، فكان عروة يدعو إلى الغنى الذي يخفف من بؤس الأرامل ويشبع الأيتام الصغار الجياع¹⁵.

وتميز عروة بأنه قائد حكيم للصعاليك، يراقبهم ويمنعهم من الهجوم حين لا تكون الغنيمة وافرة، ويأمرهم بالهجوم حين تكون الغنيمة فياضه، وكان بيت عروة الملجأ لكل محتاج، وفراشه فراشه¹⁶، فيقول:

"فِرَاشِي فِرَاسِ الضَّعِيفِ وَالْبَيْتُ بَيْتُهُ .. وَلَمْ يُلْهِنِي عَنْهُ غَزَالٌ مُقَنَّعٌ
أَحَدْتُهُ، إِنَّ الْحَدِيثَ مِنَ الْقَرَى .. وَتَعَلَّمُ نَفْسِي أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ"¹⁷

"وقد قال عبد الملك بن مروان: ما يسرنى أن أحداً من العرب ولدني ممن لم يلدني إلا عروة بن الورد لقوله:

إِنِّي امْرُؤٌ عَافِي إِنَائِي شَرَكَةٌ .. وَأَنْتَ امْرُؤٌ عَافِي إِنَائِكَ وَاحِدٌ
أَفَرَقَ جِسْمِي فِي جُسُومٍ كَثِيرَةٍ .. وَأَحْسُو قَرَاخَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَارِدٌ

¹⁴ يعقوب بن السكيت، شرح ديوان عروة بن الورد، تح: عبد المعين الملوحي، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ص (ز).

¹⁵ ابن السكيت، شرح ديوان عروة بن الورد، ص (ح).

¹⁶ عروة بن الورد، ديوان عروة بن الورد أمير الصعاليك، دراسة وشرح وتحقيق: أسماء أبو بكر، بيروت، دار الكتب العلمية، 1998، ص10.

¹⁷ ابن السكيت، شرح ديوان عروة بن الورد، ص 101.

أَتَهْزَأُ مِنِّي أَنْ سَمِنْتَ وَأَنْ تَرَى .. بِجَسْمِي مَسَّ الْحَقِّ وَالْحَقُّ جَاهِدُ " 18

• الشنفرى:

هو عمرو بن مالك بن الحجر بن الأزدي، من قحطان، هو شاعر وصلوك جاهلي، كان رجلاً خطيراً في أيام الجاهلية، فكان من أشد فتاك العرب وعدائهم¹⁹، وقيل اسمه الشنفرى، وقيل الشنفرى لقب له ومعناه عظيم الشفة، و هو أحد الخلاء الذين تبرأت منهم عشائهم، وهو صاحب لامية العرب، ويختلف نسبه في المصادر، غير أن بعض المصادر القديمة لم تذكر شيء عنه، ولا نجد في مصادر ترجمته تاريخاً محدداً لولادته ولا لمكانها، كان الشنفرى من قبيلة الأواس بن الحجر بن الهنو بن الأزدي بن الغوث، وكان من العرب اليمانية، أُسر من قبيلة بنو شهابية بن فهم بن عمرو بن عيلان.

" فبقي معهم إلى أن أسرت بنو سلامان بن مفرج بن عوف رجلاً من فهم، أحد بني شهابية ففدت بنو شهابية الرجل بالشنفرى، وكان الشنفرى في بني سلامان كأنه رجل منهم حتى نازعته ابنة الرجل الذي كان عنده، وكان السلمي قد اتخذ الشنفرى ولداً وأحسن إليه، فقال الشنفرى: اغسلي رأسي يا أختي، فأنكرت أن يكون الشنفرى أخاها ولطمته، فذهب إلى الذي اشتراه من فهم مغاضباً، فقال له الشنفرى: أخبرني ممن أنا؟ قال: أنت من الأواس بن الحجر، فقال: لن أدعكم حتى أقتل مائة.

وقال الشنفرى للجارية السامية:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْأَمَانِي ضَلَّةٌ .. بِمَا صَرَبْتُ كَفَ الْفَتَاةِ هَجِينَهَا

وَلَوْ عَلِمْتُ جَعْسُوسُ²⁰ أَنْسَابَ وَالِدِي .. وَوَالِدَهَا ظَلَّتْ نَقَاصِرُ دُونَهَا

أَنَا ابْنُ خِيَارِ الْحَجَرِ بَيْتًا وَمَنْصِبًا .. وَأُمِّي ابْنَةُ الْأَحْرَارِ لَوْ تَعْرِفِينَهَا" 21

18 عبد الله بن قتيبة، الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، القاهرة، دار المعارف، عدد الأجزاء 2، ج2، ص675 - 676.

19 التبريزي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، ص348.

20 اسم الفتاة.

21 التبريزي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، ص351.

ولزم الشنفرى دار فهم وكان يغير على الأزد على رجليه، وكان الشنفرى من أشهر عدائي العرب، حتى سار به المثل فقيل: "أعدى من الشنفرى"، وقاس بعضهم خطوات الشنفرى في عدوه، فكانت الأولى إحدى وعشرين خطوة، والثانية سبع عشرة خطوة، والثالثة خمس عشرة خطوة²².

وكانت حياة الشنفرى تنحصر كلها على السلب والنهب والتلصص والغارات ليلاً، وكان يتلصص بخفة ورشاقة إما وحده أو بصحبة بعض رفقاءه العدائين منهم تأبط شراً، والسليك بن السليكة، فيروعون النساء والأطفال، ويشتتون عقول الرجال²³.

وذكر الأصفهاني في كتابه الأغاني عدة روايات لمقتله منها: " أنه رصد أسيد بن جابر السلاماني وخازم الفهمي في وادي يقال له الناصف من أبيدة ومعه أسيد ابن أخيه، فمر عليهم الشنفرى، فأبصر السواد بالليل فرماه، وكان لا يرى سواداً إلا رماه، فشك ذراع ابن أخ أسيد في عضده، فلم يتكلم، فقال الشنفرى: إن كنت شيئاً فقد أصبتك وإن تكن شيئاً فقد أمنتك، وكان خازم الفهمي منبطحاً بالطريق يرصده.

فنادى أسيد لخازم وقال: يا خازم أصلت، يعني اسلّ سيفك، فقال الشنفرى: لكلّ أصلت، فسَل الشنفرى سيفه ثم ضرب فقطع إصبعين من أصابع خازم الخنصر والبنصر، وضبطه خازم حتى لحقه أسيد وابن أخيه للنجدة، فأخذ أسيد سلاح الشنفرى، وصرع الشنفرى خازماً وابن أخيه أسيد، فاستطاعا ضبطه وهو تحتها، وأخذ أسيد برجل ابن أخيه، فقال أسيد: رجل من هذه؟ فقال الشنفرى: رجلي، فقال ابن أخيه أسيد: بل هي رجلي يا عم، ثم أسروا الشنفرى، وأخذوه إلى أهلهم، فضربوا الشنفرى على يده فقطعت، فقال الشنفرى:

لَا تَبْعِدِي إِمَّا ذَهَبَتِ شَامَةٌ .. فَرُبَّ وَاِدٍ نَفَرَتْ حَمَامَةٌ

وَرُبَّ قِرْنٍ فَصَلَتْ عِظَامَةٌ

²² فؤاد البستاني، الروائع: الشعر الجاهلي والشنفرى، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1927، ص46.

²³ البستاني، الروائع، ص46.

ثم قال له السلامي: أأطرفك؟ ثم رماه في عينه فقال الشنفرى له: كذلك كنا نفعل، وكان الشنفرى إذا رمى رجلاً منهم قال له: أأطرفك؟ ثم يرمي عينه، ثم قالوا له حين أرادوا قتله: أين نقبرك؟ فقال:

لا تَقْبُرُونِي إِنَّ قَبْرِي مُحَرَّم .. عليكم ولكن أبشري أُمَّ عامرٍ
إذا احْتَمَلْتُ رَأْسِي وَفِي الرَّأْسِ أَكْثَرِي .. وَغُوْدِرَ عِنْدَ الْمُلتَقَى ثَمَّ سَائِرِي
هناك لا أرجو حياة تَسْرُنِي .. سَمِيرَ اللَّيَالِي مُسْبَلًا بِالْجَرَائِرِ²⁴

• تأبط شراً:

هو "ثابت بن جابر بن سفيان"²⁵، وهو من فهم، وكان تأبط جريئاً شاعراً فائقاً²⁶.

وتأبط شراً هو لقب له، وفي هذا اللقب عدة احتمالات، فقد ذكر الرواة أن تأبط شراً رأى كبشاً في الصحراء، فحمله تحت إبطه، فجعل يبول عليه طوال الطريق، فلما اقترب من الحي أصبح الكبش ثقيلاً، فرمى به فإذا هو الغول، فقال قومه: ما تأبطت يا ثابت؟ فقال ثابت: الغول، فقالوا: لقد تأبط شراً فلقب بذلك.

وقيل: أن أمه قالت له: كل إخوتك يأتيني بشيء إذا راح غيرك، فقال تأبط شراً: سأتيك الليلة بشيء، وخرج فصاد أفاعي كثيرة من أكبر ما استطاع، ثم أتى بهن في جراب متأبطاً له، فألقاه بين يديها، ففتحت الجراب فتساعين في بيتها، ثم خرجت، فقال لها نساء الحي: بماذا أتاك ثابت؟ فقالت: أتاني بأفاعٍ جمعها في جراب، فقلن: وكيف حملها لك؟ فقالت: تأبطها، فقالت النساء: لقد تأبط شراً، فلزمه ذلك اللقب.

وقيل إنما سمي تأبط شراً لبيت قاله عندما لقي الغول في إحدى الليالي المظلمة، في بلاد هذيل في موضع يقال له رحي بطحان، فأخذت عليه طريقه، فوثب بها حتى قتلها، وبات عليها، فلما أتى الصبح حملها تحت إبطه، وخرج بها إلى أصحابه، فقالوا: لقد تأبطت شراً، فقال:

²⁴ الأصفهاني، الأغاني، ج21، ص 129-130.

²⁵ الأصفهاني، الأغاني، ج21، ص94.

²⁶ التبريزي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، ص352.

"تأبّط شراً ثم راح أو اغتدى .. يُوائم غُناً أو يشيف على دَحَل" 27 " 28

وكان تأبّط من أسمع العرب وأكيدهم، وكان تأبّط شراً أحد لصوص العرب واشتهر بالغزو على رجليه وحده، وعرف أنه أعدى ذي رجلين وذي ساقين وذي عينين²⁹، وكان إذا شعر بالجوع نظر إلى الأطباء، فيعيين نظره على أسمنها، ثم يجري خلفه فلا يفوته حتى يأخذه فيذبحه بسيفه ثم يشويه فيأكله³⁰.

ويروي صاحب الأغاني قصته مع قبيلة بَجيلة التي تصور قوة سمعه وشدة كيده، فقد أغار تأبّط شراً ومعه عمرو بن براقة على بَجيلة، فأخذا لهم نَعْماً، فنذرت لهما بَجيلة، ثم خرجت في تعقب آثارهما ومضى تأبّط شراً وصاحبه هاربين في جبل السّراة، فعارضتهما بَجيلة في السهل فسبقوهما إلى الوَهْط³¹.

وقد بلغ منهما العطش، فلما وقفا على الوَهْط قال تأبّط شراً لعمرو: أَقِلَّ من الشراب فإن هذه الليلة ليلة طرد، فقال عمرو: وما يدريك؟ قال: والذي أعدو بطيره إني لأسمع وجيب قلوب الرجال تحت قدمي، فقال ابن براقة: إنه وجيب قلبك، فقال تأبّط شراً: والله وما وَجَبَ قط، ولا كان وَجَاباً، وضرب بيده عليه، وأنحى نحو الأرض يستمع وقال: والذي أعدو بطيره، إني لأسمع وَجِيبَ قلوب الرجال، فقال له عمرو: أنا أنزل قبلك، فنزل وشرب و قد كان عمرو صغير الشأن عند بَجيلة، فتركوه وهم في الظلمة، ثم نزل تأبّط شراً، فلما توسط في الماء وثب الرجال عليه، فأخذوه من العين وأخرجوه مكتوفاً، وابن براقة صاحبه قريب منهم لا يرغبون فيه لما يعلمون من سرعة عَدُوهِ.

فقال لهم تأبّط شراً: إنه من أشد الناس عُجْباً وصلفاً بعدوه، وسأقول له: استأسر معي، فإن عجبه بعدوه سيدعوه إلى العدو بين أيديكم، ولعدوه ثلاثة أطلاق: في أولها كالرياح الهابة، وثانيها كأنه الفرس الجواد، وأما ثالثها يكبو فيه ويعثر، فإذا رأيتم ذلك فخذوه فإني أحب أن أصبح بين أيديكم كما صرت إذ لم يوافقني ولم يقبل نصحي ورأيي له، فقال رجال بَجيلة: افعل، فصاح تأبّط شراً به، أنت أخي في الرخاء

²⁷ يوائم: يوافق، يشيف: يقتدر، دحل: الثأر.

²⁸ الأصفهاني، الأغاني، ج21، ص95.

²⁹ الأصفهاني، الأغاني، ج21، ص94 - 95.

³⁰ عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تح: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي،

ج1، ص138.

³¹ الوَهْط: مكان ماء لعمرو بن العاص بالطائف.

والشدة، وقد وعدني رجال القوم أن يمنوا عليّ وعليك، فاستأسر، وواسني في البأس، كما كنت أخي في الرخاء.

فضحك عمرو وعلم أن تأبط شراً كاد الرجال، وقال عمرو: مهلاً يا ثابت، أيستأسر من يملك هذا العدو؟ ثم عدا فعدا أول طلق كأنه الرياح الهابة، ثم كأنه الفرس الجواد، ثم أخذ يكبو ويعثر ويقع على وجهه، فقال تأبط شراً: خذوه، فعدا رجال بجيلة لأخذ عمرو، فلما نفّسهم عنه، عدا تأبط شراً وهو مكتف الأيدي، ثم عارضه عمرو فقطع كتافه، فأفلتا من القوم، فقال تأبط شراً في قصيدته القافية:

" يا عيدُ ما لك من شوقٍ وإبراقٍ ... ومَرٍ طيفٍ على الأهوالِ طَرّاقٍ
يسري على الأين والحياتِ مُحْتَفِياً .. نفسي فداؤك من سارٍ على ساقٍ
طيفِ ابنةِ الحرِّ إذ كُنّا نواصلُها .. ثُمَّ اجْتَنَنْتَ بُهاً بَعْدَ تَفَرّاقٍ
لتقرعن عليّ السِّنَّ من نَدَمٍ .. إذا تذكرتِ يوماً بعضَ أخلاقي
تاللهِ أَمَنْ أنْثى بَعْدَما حَلَقْتُ .. أَسْمَاءُ بِاللهِ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثاقٍ
مَمزوجةِ الودِّ بَيْنا واصلتِ صَرَمَتَ .. الأوّلِ اللّذْ مَضَى وَالآخرِ الباقي
فَالأوّلِ اللّذْ مَضَى قال مَوَدَّتْها .. وَاللّذْ مِنْها هُذَاءُ غَيْرُ إِحْفاقٍ
تُعْطِيكَ وَعَدَ أَمانيّ تُعْرِ بِه .. كَالْقَطْرِ مَرَّ عَلَى صَخْبَانِ بَرّاقٍ
إِنِّي إِذا خُلَّةٌ صُنْتُ بِنائِلِها .. وَأَمْسَكْتَ بِضَعِيفِ الحَبْلِ أَحْذاقٍ
نَجَوْتُ مِنْها نَجائي مِنْ بَجِيلَةٍ إِذْ .. أَلْقَيْتُ لِلْقَوْمِ يَوْمَ الرَّوْعِ أرواقي " 32

• عمرو بن بركة:

هو عمرو بن الحارث بن عمرو بن منبه النهمي، من قبيلة همدان، وكان معروفاً بعمرو بن بركة أو بن براق، وهي أمه، وكان عمرو شاعر همدان قبيل دخول الإسلام، كانت له أخبار في الجاهلية، عاش إلى خلافة الفاروق عمر بن الخطاب، ووفد عليه، قال الكلبي: "أذن عمر للناس فدخل عمرو بن بركة وكان شيخاً كبيراً يعرج" 33.

32 الأصفهاني، الأغاني، ج21، ص 97 - 98.

33 خير الدين الزركلي، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط15، 2002، ج 5، ص 76.

وكان رفيقاً للشنفرى وتأبط شراً في الصعلكة، وكان من القلائل بين الشعراء الصعاليك الذين لا تقف عقبة في طريق أهدافهم، إلا أن أخباره قليلة جداً ولا نجد له أثر في كبار الكتب مثل صاحبيه، ونجد أن صاحب الأغاني قد أفرد له صفحتين فقط ذكر فيهما قصته مع رجل يقال له حُرَيْم الهمداني، حينما أغار حُرَيْم على إبل وخيل لعمرى فذهب بها، فأتى عمرو إلى امرأة كان يزورها ويتحدث إليها فأخبرها أن حُرَيْماً أغار على خيله وإبله فأخذها، وأنه يريد الإغارة عليه، فقالت المرأة: ويحك لا تعرض لتلفه حُرَيْم فإنني أخاف عليك، فأغار عمرو عليه، فاستاق كل ما كان له من أبل وخيل، فأتاه حريم يطلب منه أن يرد عليه ما أخذه منه، فقال له: لا أفعل، وأبى ذلك وانصرف، فقال عمرو:

" تَقُولُ سُلَيْمَى لَا تَعْرُضُ لِتَلْفَةٍ .. وَلَيْلِكَ عَنْ لَيْلِ الصَّعَالِيكِ نَائِمٌ

وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلُ مَنْ جُلُّ مَالِهِ .. حُسَامٌ كَلَوْنَ الْمِلْحِ أَبْيَضُ صَارِمٌ

صَمُوتٌ إِذَا عَضَّ الْكَرِيهَةَ لَمْ يَدَّع .. لَهَا طَمَعاً طَوْعُ الْيَمِينِ مُلَازِمٌ

نَقَدْتُ بِهِ أَلْفاً وَسَامَحْتُ دُونَهُ .. عَلَى النِّقْدِ إِذْ لَا تُسْتَطَاعُ الدَّرَاهِمُ

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الصَّعَالِيكَ نَوْمُهُمْ .. قَلِيلٌ إِذَا نَامَ الدُّثُورُ الْمُسَالِمُ

إِذَا اللَّيْلُ أَدَجَى وَاكْفَهَرَتْ نَجُومُهُ .. وَصَاحَ مِنَ الْإِفْرَاطِ هَامٌ جَوَائِمُ

وَمَالَ بِأَصْحَابِ الْكَرَى غَالِبَاتُهُ .. فَإِنِّي عَلَى أَمْرِ الْغَوَايَةِ حَازِمٌ

كَذَبْتُمْ وَبَيَّتَ اللَّهُ لَا تَأْخُذُونَهَا .. مُرَاعِمَةٌ مَا دَامَ لِلْسَيْفِ قَائِمٌ³⁴

• صخر الغي:

هو صخر بن عبد الله الخيثمي، أحد رجال بني خيثم بن عمرو بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل، لقب بصخر الغي لشدة شره وبأسه وخلاعه³⁵.

³⁴ الأصفهاني، الأغاني، ج21، ص126.

³⁵ الأصفهاني، الأغاني، ج23، ص5.

ونسب الأصفهاني أبياتاً من قصيدة له، قال في سبب القصيدة أن صخرًا قتل جارا لشاعرٍ من بني هذيل، يعرف بأبي المثلث ودارت بينهما قصائد ومناقضات ذكرها الأصفهاني في كتاب الأغاني³⁶.

وكان السبب أن جارا لقوم خُناعَة بن سعد بن هذيل من بني الرمداء قد جاورهم رجل من بني مزينة، وقيل أيضاً: إنه كان جارا للشاعر أبي المثلث وأخوهم، فقتل صخر الغي ذلك الرجل، فخرج أبو المثلث إلى قومه، وبعثهم مطالباً بدم جارهم المزني والأخذ بثأره، فبلغ ذلك صخرًا فقال قصيدة يذكر ما فعله أبا المثلث، فيقول:

"ولستُ عبداً للموعدين ولا .. أَقْبِلُ ضَيْماً وَأَتَى بِهِ أَحَدُ
جاءت كبيرٌ كيما أَخْفَرَهَا .. والقوم صَيْدٌ كَأَنَّهُمْ رَمَدُوا
في المزني الذي حَشَشْتُ بِهِ .. مَالِ ضَرِيكَ³⁷ تِلَادُهُ نَكْدُ
إِنْ أَمْتَسِكُهُ فَبِالْفِدَاءِ وَإِنْ .. أَقْتُلُ بِسَيْفِي فَإِنَّهُ قَوْدُ "

وقد خرج صخر الغي في جماعة من قومه خوفاً من أبي المثلث، فأغار صخر على بني المصطلق من خزاعة، وكان ينتظر بقية أصحابه، فعلم به بني المصطلق، فأحاطوا بصخر، فقال:

"لَوْ أَنَّ أَصْحَابِي بَنُو مُعَاوِيَةَ .. أَهْلُ جُنُوبِ النَّخْلَةِ الشَّامِيَّةِ
وَرَهْطُ دُهْمَانَ وَرَهْطُ عَادِيَةَ .. مَا تَرَكُونِي لِلذِّئَابِ الْعَاوِيَةِ "

فأخذ صخر يرميهم ويرتجز، فيقول:

"لَوْ أَنَّ أَصْحَابِي بَنُو خُناعَةَ .. أَهْلُ النَّدى والمجدِ والبراعةِ
تَحْتَ جُلُودِ البَقَرِ القَرَاعَةِ .. لَمَنَعُوا مِنْ هَذِهِ الْبِرَاعَةِ "

وقال وهو يقاتلهم:

³⁶ الزركلي، الأعلام، ج 3، ص 201.

³⁷ ضريك: الفقير السيء الحال.

"لَوْ أَنَّ حَوْلِي مِنْ قُرَيْمٍ³⁸ رَجُلًا .. بِيضَ الْوُجُوهِ يَحْمِلُونَ الثُّبُلَا

لَمَنْعُونِي نَجْدَةً وَرِسْلًا .. سَفَعَ الْوُجُوهُ لَمْ يَكُونُوا عُرْلًا "

فكان يقول: منعوني بشدة ونجدة وعلى رسلهم بأهون سعي، فبقي صخر يقاتلهم حتى قتلوه، فبلغ ذلك أبا المثلث فنظم أبيات في رثائه³⁹.

4. 1. 1. أبرز صفات الصعاليك في العصر الجاهلي:

وعلى الرغم من حرمان المجتمع للصعاليك من حقوقهم، ومعاناتهم من التهميش والهوان في هذا المجتمع الذي يسوده التمييز الطبقي، وعلى الرغم أيضاً من اعتمادهم السلب والنهب كوسيلة لأخذ حقوقهم وفرض أنفسهم، إلا أنهم تحلوا بصفات روحية وجسدية حسنة.

فقد تميزوا بالشجاعة والصبر عند البأس والجرأة وقوة الجسد، وشدة المراس والعزيمة، وعمق الدهاء وسعة الحيلة، وإدراك الهدف، والاقتحام والاعتماد على النفس واليقظة الدائمة. وسرعة العدو؛ حتى سموا بالعدائين، وضربت الأمثال في شدة عدوهم؛ فيقال: "أعدى من السليك" و"أعدى من الشنفرى".

كما اشتهروا بالأنفة والإباء والعزة، والترفع عن الدنيا وحقير الأعمال، وقد اعتمدوا في حياتهم على انتهاز الفرص، والبطش والقوة، مع خفة الحركة، والهجوم عند النهب والسلب والفتك بأعدائهم، والحرص على الاهتمام بالضعفاء والمرضى والمحتاجين.⁴⁰

³⁸ قريم: حي من هذيل.

³⁹ الأصفهاني، الأغاني، ج23، ص 5 - 8.

⁴⁰ الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، ص 438.

وكذلك تسلق الجبال والاعتصام بها، لذلك عرف الصعاليك بارتقاء أوعر الشعاب والمنحدرات الصعبة المرتقى، يتخذها الصعلوك مأواه، ويهرب إليها أو يحط عليها كالصقر، ويعجز الفرسان المدججين بالأسلحة عنها، فالصعلوك جسمه هزيل، سريع الفرار والعدو، متمرس بالتسلق والاختباء⁴¹.

5. 1. 1. شعر الصعلكة وموضوعاته في العصر الجاهلي:

على قلة ما وصل إلينا من شعر الصعاليك لكنه اتخذ له مكانه في الشعر العربي، وتميز بسماتٍ خاصة، فكان منه مقطعات قصيرة، وقليلاً منه قصائد طويلة كلامية الشنفرى، ورائية عروة بن الورد، لكن المقطعات فيها اضطراب فقد ينسب البيت الواحد أو المقطعة إلى أكثر من شاعر، وقد يكون ذلك لما بين الصعاليك من صلة، كاشتراكهم في الغزو، أو انتمائهم إلى قبيلة واحدة أو مجموعة من الصعاليك، ومن أهم موضوعاتهم:

- أحاديث المغامرات والفرار.
- شعر المراقب.
- الوعيد والتهديد.
- وصف الأسلحة.
- الحديث عن الرفاق.
- سرعة العدو.
- الغزوات على الخيل.⁴²

وستتناول الحديث عن هذه الموضوعات بالتفصيل.

• أحاديث المغامرات:

وكان أهم ما يُعنى به الصعاليك هو أحاديث المغامرات، فكانت هي الصنعة التي قامت عليها حياتهم، فاتخذوا من الأحاديث أسلوباً لتحقيق غاياتهم، فكانوا يفخرون ببطولاتهم وبمقدرتهم على النجاة من أخطار الغارات، فيصفون كل ما يحدث في هذه المغامرات، من وضع الخطط وتنفيذهم لها، وكيف

⁴¹ ضيف، العصر الجاهلي، ص 375.

⁴² خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 182 - 228.

يستطيعون تحقيق أهدافهم، وكانوا يتحدثون عن غاراتهم برفقة أصدقائهم الصعاليك، ودور كل صعلوك، وكيفية تنفيذ خططهم في الغارات، وآثار هذه الغارات على أعدائهم، ثم يوضحوا كيف انتهت هذه الغارات وعاد الصعاليك إلى قواعدهم ومراقبهم سالمين بعد أن قتلوا ونهبوا وسلبوا⁴³.

• شعر المراقب:

تحدث الصعاليك عن ترصدهم لأعدائهم ولضحاياهم، وترقبهم لانتهاز الفرصة المناسبة لمهاجمة العدو، والمكوث فوق أعالي المرتفعات ليشرفوا على الطرق ويرووا الناس، والمراقبة هي المكان الذي يتربص الشاعر الصعلوك فوقها دائماً، وتكون هذه المراقبة أبية منيعة، وأكثر ما يتحدث عنه الشعراء الصعاليك هو تربصهم فوق المراقب حين يقبل الليل الأهميم، ليتوارى عن الأنظار ويكون أمعن في التخفي، فالشنفري الأزدي الذي اشتهر بشدة فتكه بين صعاليك الجاهلية، وكذلك سرعة عدوه، يرسم قصيدة من شعره يصور بها لوحة رائعة لمراقبته العالية المنيعة التي يعجز عنها الصياد الماهر الذي يخرج بكلابه المدربة للصيد، ويصف كيف كان يصعد إليها ساعياً على رجليه، وقد أقبل ظلام الليل الحالك الذي يلف الكون، ويصور كيف قضى ليلته فوق المراقبة متربصاً⁴⁴، فيقول:

"ومراقبة عَنقاء يَقْصُرُ دونها .. أخو الصَّروَةِ الرَّجْلُ الخَفِيُّ المَخْفَفُ

نَمِيْتُ إلى أَعلى ذراها وقد دنا .. من الليل ملْتَفْتُ الحديقةَ أَسْدَفُ

فَبِثُّ على حَدِّ الذَّراعين أَحْداً .. كما يَتَطَوَّى الأَرْقَمُ المُتَعَطِّفُ

قَلِيلٌ جَهازِي غيرُ نعلينِ أَسَحَّتْ .. صُدُورُهُما مَخْصُورَةٌ لا تُخَصِّفُ

وَمِلْحَقَةٌ دَرَسٍ وَجَرْدٌ مُلَاعَةٌ .. إِذا أَنْهَجْتَ من جانب لا تَكْفُفُ⁴⁵

⁴³ خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 182.

⁴⁴ خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 187 - 188.

⁴⁵ الأصفهاني، الأغاني، ج21، ص 135.

• التوعّد والتهديد:

وكان الصعاليك يتوعّدون العدو في أشعارهم توعّداً وتهديداً عنيفاً، فكان الصعلوك عمرو بن العجلان بن مُنْبه، أحد رجال بني كاهل بن هذيل، والمقلب بذئ الكلب لأن كان له كلب لا يفارقه⁴⁶، يخبر أعداءه بأن الصراع بينهم وبينه سيكون مريراً، والويل للمغلوب فيه، وينذرهم بأنه إذا تمكن منهم لن يرحمهم، فيتوعدهم بأنه لن يكف عن غزوهم حتى يقتلهم وتتنوح نساءهم، فيقول:

" فَإِنْ أَتَقَنُّمُونِي فَاقْتُلُونِي .. وَإِنْ أَتَقَفْ فَسَوْفَ تَرَوْنَ بَالِي

فَأَبْرُحُ غَازِيَا أَهْدَى رَعِيلاً .. أَوْمٌ سَوَادٌ طَوْدٍ ذِي نَجَالٍ⁴⁷

وَيَبْرُحُ وَاحِدٌ وَاثْنَانِ صَحْبِي .. وَيَوْمًا فِي أَصَامِيمِ الرِّجَالِ

بِفَتَيَانِ عَمَارِطٍ⁴⁸ مِنْ هُذَيْلٍ .. هُمْ يَنْفُونَ أَنَاسَ الْحِلَالِ

وَأَبْرُحُ فِي طَوَالِ الدَّهْرِ حَتَّى .. أَقِيمَ نِسَاءً بَجَلَةً بِالْبَعَالِ⁴⁹

• وصف الأسلحة:

كانت الأسلحة هي القوة التي اعتمد عليها الصعاليك في مغامراتهم، إلى جانب قوة قلوبهم وسرعة أرجلهم، والأسلحة التي يصفها الشعراء الصعاليك هي ذاتها التي عرفها عرب الجاهلية، سواء كانت أسلحة الهجوم: كالسيف، والقوس، والرمح، والسهم، أو أسلحة الدفاع: كالترس، والدرع، والمغفر⁵⁰.

ويصرح صخر بن عبدالله الخثمي، الذي عُرف بصخر الغي لكثرة جنائياته وخلاعه، وكثرة شره، فيقول في بعض أشعاره بأنه لا يفرط بسلاحه، فقد كان شديد الحرص عليه، لئلا يطمع فيه أحد ممن

⁴⁶ الأصفهاني، الأغاني، ج23، ص9.

⁴⁷ أوم: أقصد، طود: جبل، النجال: ما يستجل من الأرض.

⁴⁸ عمارط: يقال لص أمرط وعمرط إذا كان خبيثاً.

⁴⁹ الحسن السكري، شرح أشعار الهذليين، تح: عبد الستار أحمد فراج، وراجعه: محمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة،

ج1، ص 567 - 568.

⁵⁰ خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص195.

يتوعدونه، ويترصدون له من أعدائه الذين طالما وتَرَ قوسه عليهم، فيعدد سلاحه في قصيدته ويصفه، فيقول:

" ذَلِكَ بَرِّيَ فَلَنْ أَقْرِطَهُ .. أَخَافُ أَنْ يُنْجِزُوا الَّذِي وَعَدُوا
وَلَسْتُ عَبْدًا لِلْمُوعِدِينَ وَلَا .. أَقْبَلُ ضَيْمًا يَأْتِي بِهِ أَحَدٌ " ⁵¹

ويصف الشعراء الصعاليك أسلحتهم المختلفة وصفاً دقيقاً لكل أجزائها، ويحرص الصعلوك على أن يصف في شعره كل شي عنها، شكلها، وصوتها، ولونها، وطريقة صنعها، وقيمتها في حياته، وطريقة استخدامها، وفعلها في أعدائه.

فالسيف عند عمرو بن الحارث النهمي، الذي يلقب بعمرو بن بريقة وهي أمه، وكان شاعر لهمدان قبيل الإسلام، فالسيف عنده "جل ماله" لا يفارق يمينه ملازم له، وهو طوع أمر يمينه، ولحملة تقاليد، فصاحب السيف يجب ألا ينام الليل، فمن تقاليد حملة أن صاحبه يكون من "أبناء الليل"، فيقول:

" وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلَ مِنْ جُلِّ مَالِهِ .. حُسَامٌ كُلُّونَ الْمِلْحَ أَبْيَضُ صَارُمٌ
صَمُوتٌ إِذَا عَضَّ الْكَرْيَهَةَ لَمْ يَدَعْ .. لَهَا طَعْمًا، طَوْعُ الْيَمِينِ مُلَازِمٌ " ⁵²

وأما الشنفرى الأزدي فكان يهتم بأثر سيفه في أعدائه، والحديث عن براعته في استخدام سيفه، وأنه قاطع لأطراف سواعدهم، فيقول:

" وَأَبْيَضُ مِنْ مَاءِ الْحَدِيدِ مَهْنَدٌ .. مَجْدٌ لِأَطْرَافِ السَّوَادِ مِقْطَفٌ
وصفراء من نبع أبي ظهيرة .. تُرِنَ كَارِنَانَ الشَّجِيِّ وَتَهْتَفُ " ⁵³

⁵¹ السكري، شرح أشعار الهذليين، ص 259.

⁵² عمرو بن بريقة، عمرو بن بريقة الهمداني، تح: شريف علاونة، عمان، دار المناهج، ط1، 2005، ص 109 - 110.

⁵³ الأصفهاني، الأغاني، ج21، ص136.

• الحديث عن الرفاق:

فنجد في أشعار الصعاليك الحديث عن رفاقهم ودور كل واحد منهم، وتتخل في أشعارهم من قبيل ألفاظ الرِّجْل، والمِقْنَب، والفتيان، والأصحاب، والقوم. ونجد في أشعارهم استخدام ضمير الجماعة بكثرة، فيعبرون به عن رفاقهم لا عن قبائلهم⁵⁴.

ويتحدث تأبط شراً واسمه ثابت بن جابر الفهمي، وكان تأبط شراً شاعراً صعلوك جريئاً وفاتكاً، وكانت أكثر غاراته مع عمرو بن بركة والشنفري، فيتحدث عن رفاق الغارات معجباً بهؤلاء الرفاق، معتزاً برفقتهم، مقدراً لجهودهم في حياته المغامرة، فكانوا عوناً له في حياته، يستعين بهم ويستغيث إذا انغلق عليه أمر، فهم أبطال شجعان، لانشغالهم بالغزو والكفاح والتجوال في آفاق الفيافي، وعيونهم تتوقد جرأة وحماسة وإقدام، وكأن عيونهم نار الغضا المتأججة:

"مَسَاعِرَةٌ شُعْتُ كَأَنَّ عُيُونَهُمْ .. حَرِيقُ الْغُضَا تُؤْفَى عَلَيْهَا الشَّقَائِقُ

فَعُدُّوا شَهْوَرَ الْحُرْمِ ثُمَّ تَعَرَّفُوا .. قَتِيلُ أَنْاسٍ أَوْ فَتَاةٌ تَعَانِقُ"⁵⁵

• سرعة العدو:

رأى الصعاليك أن سرعة العدو هي ميزة تفردوا بها عن غيرهم، ونظموا أبيات الأعجاب بأنفسهم لأنهم تفردوا بهذه الصفة عن سائر الناس، وكان الصعاليك يروون أنهم يستطيعون فعل ما لا يستطيعه بعض الناس، ويصرح الصعلوك حاجز بن عوف الأزدي وهو شاعر صعلوك، ومن أحد المغيرين على قبائل العرب، وكان ممن يعدو على رجليه ويسبق بعدوه الخيل، فيصرح بأن سرعة عدوه لها الفضل الأكبر في نجاته من بعض المواقف الضيقة لا إلى قتاله الفضل، فيقول:

"فَغَيْرِ قِتَالِي فِي الْمَضِيقِ أَغَانَتِي .. وَلَكِنْ بَذَلِي الشَّدَّ غَيْرِ الْأَكَاذِبِ

نَجَوْتُ نَجَاءً لَا أَبْيِكَ تَبْتُهُ .. وَيَنْجُو بِشِيرِ نَجْوٍ أَزْعَرَ خَاضِبٍ

⁵⁴ خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص205.

⁵⁵ الأصفهاني، الأغاني، ج21، ص102.

وجدتُ بغيراً هاملاً فركبتهُ .. فكادت تكون شرَّ ركبةٍ راكبٍ⁵⁶

ويصرح أبو خراش الهذلي واسمه خويلد بن مرة، من أحد بني قرد، وكان من شعراء هذيل الفصحاء، وكان ممن يعدو ويسبق الخيل في حروب قومه وغاراته، ويقول بأنه لولا تميزه بسرعة عدوه وفراره من الأعداء لآمت امرأته ويُم ابنه:

"فلولا دِرَاكُ الشَّدِّ أَظُنْتُ حَلِيلَتِي .. تَخَيَّرَ فِي حُطَّابِهَا وَهِيَ أَيْمٌ

فَتَسَخَطُ أَوْ تَرْضَى مَكَانِي خَلِيفَةً .. وَكَادَ خِرَاشٌ عِنْدَ ذَلِكَ يَنْتَمٍ"⁵⁷

• الغزوات على الخيل:

"ليس هناك ما يمنع الصعاليك من استخدام الخيل في غزواتهم إن وجدت، وقد عرفت أسماء خيل بعض الصعاليك، فقَرَّمَل فرس عروة بن الورد، والنَّحَام فرس السُّلَيْك بن السُّلَكَة، واليحموم فرس الشنفري، ويتحدث الصعاليك أحياناً عن غزواتهم على الخيل مقترنة بغزواتهم على الأقدام"⁵⁸، ويصرح السُّلَيْك بن عمرو بن السُّلَكَة وهو أحد صعاليك الجاهلية العدائين الذين لا يُلْحَقُونَ، وكان السُّلَيْك من أشد وأنكر رجال العرب وأشهرهم، وكان يعرف بالرَّجْلي و يُضْرَب المثل به في سرعة العدو، و يتحدث عن شدة حاجته إلى فرسه أثناء غارات الفرسان من أصحابه على أهدافهم، ويصف ما يحتاجه لبقائه واستمراره في الحياة، فيقول:

"كَأَنَّ قَوَائِمَ النَّحَامِ لَمَّا .. تَحَمَّلَ صَحْبَتِي أَصْلًا مُحَارُ

على قرماء عالية شواه .. كأن بياض غرته خمار

وما يدريك ما فقري إليه .. إذا ما القوم ولوا أو أغاروا"⁵⁹

⁵⁶ الأصفهاني، الأغاني، ج13، ص 150 - 151.

⁵⁷ الأصفهاني، الأغاني، ج21، ص 147 - 149.

⁵⁸ خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 227.

⁵⁹ السُّلَيْك بن السُّلَكَة، السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره، تح: حميد ثويني، كامل عواد، بغداد، مطبعة العاني، ط1،

1984، ص28.

وكان الشنفرى الأزدي يلقب بالرَّجُلِي و يُضرب المثل به أيضاً في سرعة العدو، فيتحدث عن فرسه ويصفه بأن لا عيب فيه سوى هزاله، ولكنه مقدم جريء في الحرب، لكن إقدامه وجراته أثناء القتال تهيمن عليه مع هزاله، والخيل السمينة لا تقف أمامه، فيقول:

"وَلَا عَيْبَ فِي الْيَحْمُومِ غَيْرُ هُزَالِهِ .. عَلَى أَنَّهُ يَوْمَ الْهَيَاجِ سَمِينٌ
وَكَمْ مِنْ عَظِيمِ الْخَلْقِ عَبِلَ مُوْتَقٍ .. حَوَاهُ وَفِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ جُنُونٌ" ⁶⁰

6. 1. 1. الظواهر الفنية في شعر الصعاليك في العصر الجاهلي:

• شعر المقطوعات:

شاع في شعر الصعاليك قول المقطوعات أكثر من القصيدة، ونستثني من ذلك تائية الشنفرى التي تألفت من ستة وثلاثين بيتاً⁶¹، ورائية عروة بن الورد من سبعة وعشرين بيتاً⁶²، وقافية تأبط شراً من ستة وعشرين بيتاً⁶³، و ميمية أبو خراش من أربعة وعشرين بيتاً⁶⁴.

ومع وجود عدد من القصائد الطويلة، إلا أن شعر المقطوعات انتشر بين شعراء الصعاليك، والتي يتراوح عدد أبيات المقطوعة الواحدة منها ما بين البيتين والسبع أبيات، فنجد شعر أبو الطمحان القيني واسمه حَنْظَلَةُ بن الشَّرْقِي، من بني القين من قضاة، واشتهر أبو الطمحان أنه صعلوكاً وفارساً خارباً وشاعراً، وكان من المخضرمين عاش في الجاهلية والإسلام وكان خبيث الدين⁶⁵، فنجد شعره يتألف من مقطوعات قصيرة، تتراوح ما بين البيتين والأربع أبيات⁶⁶.

⁶⁰ الشنفرى الأزدي، ديوان الشنفرى، جمعه وحققه: إميل يعقوب، دار الكتاب العربي، ط2، 1996، ص 77.

⁶¹ المفصل الضبي، المفضليات، تح: أحمد شاكر، عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط6، ص 108 - 112.

⁶² ابن السكيت، شرح ديوان عروة بن الورد، ص 66.

⁶³ الضبي، المفضليات، ص 27 - 31.

⁶⁴ السكري، شرح أشعار الهذليين، ص 1198 - 1204.

⁶⁵ الأصفهاني، الأغاني، ج13، ص 5 - 10.

⁶⁶ انظر الأغاني ج13، سمط اللآلئ، الشعر والشعراء.

وسبب انتشار شعر المقطوعات بين شعراء الصعاليك هو طبيعة حياتهم المشغولة بالتنقل والترحال وعدم الاستقرار، والبحث عن سبيل العيش. فكانت حياتهم مضطربة، فلم يفرغوا للتطوير والتميق، كغيرهم من شعراء القبائل، الذين أفرغوا أنفسهم لأجل الشعر وأغراضه المختلفة، وكان الشعراء الصعاليك على شعور دائم أن الموت يترصد لهم، حتى كثر ذكر الموت عندهم، فكان الشاعر يسجل ما يضطرب في نفسه في مقطوعات موجزة.

ونجد عند الشنفرى عندما أراد بنو سلامان قتله، فقالوا له: أين نقبرك؟ فقال الشنفرى:

" لا تَقْبُرُونِي إِنَّ قَبْرِي مُحَرَّمٌ .. عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَبْشِرِي أُمَّ عَامِرٍ
إِذَا احْتَمَلُوا رَأْسِي وَفِي الرَّأْسِ أَكْثَرِي .. وَغُودِرَ عِنْدَ الْمُلتَقَى ثُمَّ سَائِرِي
هُنَالِكَ لَا أَرْجُو حَيَاةً تَسْرُنِي .. سَجِيسَ اللَّيَالِي مُبْسَلًا بِالْجَرَائِرِ
لَقَلْتُ لَهَا قَدْ كَانَ ذَلِكَ مَرَّةً .. وَلَسْتُ عَلَى مَا قَدْ عَهَدْتَ بِقَادِرٍ"⁶⁷

• الوحدة الموضوعية:

عند قراءة شعر الصعاليك نجد أنه تميز بالوحدة الموضوعية، فيكون لكل مقطوعة عنواناً خاصاً بها، سواء في حديث المغامرات، أو الفرار، أو الحديث عن سرعة العدو⁶⁸.

فيقول عروة بن الورد في حديثه عن القتل في الحرب:

" وَحَنُ صَبَحْنَا عَامِرًا إِذْ تَمَرَّسَتْ .. عَلَالَةَ أَرْمَاحٍ وَضَرْبًا مُذَكَّرًا
بِكُلِّ رُقَاقٍ الشَّفَرَتَيْنِ مُهَنَّدٍ .. وَلَدِنِ مِنَ الْخَطِيئِ قَدْ طُرَّ أَسْمَرَا
عَجِبْتُ لَهُمْ إِذْ يَخْنُقُونَ نُفُوسَهُمْ .. وَمَقْتَلُهُمْ تَحْتَ الْوَعْيِ كَانَ أَعْدَرَا
يَشُدُّ الْحَلِيمُ مِنْهُمْ عَقْدَ حَبْلِهِ .. أَلَا إِنَّمَا يَأْتِي الَّذِي كَانَ خُذْرًا"⁶⁹

⁶⁷ الشنفرى، ديوان الشنفرى، ص48.

⁶⁸ خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 263 - 265.

⁶⁹ ابن السكيت، شرح ديوان عروة بن الورد، ص 81 - 82.

• التلخص من المقدمات الطللية:

اتخذ الشعراء الصعاليك لهم مذهباً، فابتعدوا عن المقدمات الطللية، وكذلك خلت قصائدهم من المقدمات الغزلية، وأبدل بعض الشعراء الصعاليك هذه المقدمات بمقدمة تبدأ بذكر المرأة الحريصة على فارسها، والتي تحته دائماً على أن يحافظ على حياته، ويرفض الصعلوك الجاهلي نصيحتها معتداً بشخصيته القوية.

فنجد عمرو بن براقة يستهل مطلع قصيدته الميمية بجوار بينه وبين امرأة تسمى سليمي، ولسيت هي المرأة التي يقف على أطلالها الشاعر، أو يبكي أيامها السابقة، ولكنها امرأة حريصة على فارسها، تدعوه للمحافظة على حياته، وتتصحح ألا يعرض نفسه للمهالك، ويستريح في الليل، ولكن الصعلوك الشاعر يعجب من هذه النصيحة، فهو لا ينام الليل لأنه وهب حياته للمغامرة والبطولة، فقد كان الصعاليك لا ينامون إلا قليلاً، فهو لا يريد أن يكون مثل أولئك المسالمين الذين ينامون الليل كله، فيقول:

"تَقُولُ سُلَيْمَى لَا تَعْرِضْ لَتَلْفَةٍ .. وَلَيْلِكَ عَنْ لَيْلِ الصَّعَالِيكِ نَائِمٌ

وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلَ مَنْ جُلَّ مَالِهِ .. حُسَامٌ كَلَوْنَ الْمِلْحِ أَبْيَضُ صَارِمٌ

غَمُوضٌ إِذَا عَضَّ الْكَرِيهَةَ لَمْ يَدَعْ .. لَهُ طَعْمًا طَوْعُ الْيَمِينِ مُلَازِمٌ

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الصَّعَالِيكَ نَوْمُهُمْ .. قَلِيلٌ إِذَا نَامَ الْخَلِي الْمُسَالِمُ" ⁷⁰

أما من حيث البناء الخارجي لشعر الصعاليك، فتركوا التصريح في أبياتهم، وكان هذا الغالب على أشعارهم، فيقول يوسف خليف في تعليقه سبب تركهم ظاهرة التصريح: "يرجع إلى تلك الثورة التي كانت تجيش بها نفوس الصعاليك على أوضاع مجتمعه، وإلى تلك الحرية التي كانوا يعيشون فيها والتي كانت ترفض الخضوع لتقاليد مجتمعهم، وتلك الثورة وتلك الحرية ظهرت آثارهما عن طريق العقل الباطن في حياتهم الفنية، فكان شعرهم ثائراً على الأوضاع الفنية في الشعر الجاهلي القبلي، حراً في أوضاعه الفنية". ⁷¹

⁷⁰ ابن براقة، ديوان عمرو بن براقة، ص 75.

⁷¹ خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 270 - 274.

• التحلل من الشخصية القبلية:

ولأن الصعلوك فقد التوافق الاجتماعي من قبيلته فترتب على ذلك فقدته الإحساس بالعصبية القبلية، وكانت الروابط بين الشعراء الصعاليك وقبائلهم انقطعت اجتماعياً، فكان طبيعياً أن ينقطع ذلك في أشعارهم، فلم يعد الصعلوك لسان قبيلته بسبب الانقطاع ما بينه وبين قبيلته، فأصبح يسجل مشاعره وكل ما يدور في حياته بأشعار خاصة به، بدلاً من التعبير عن القبيلة⁷².

ف نجد الشنفرى الأزدي اختار مجتمعاً غير مجتمع أهله، مجتمعاً كله وحوش، وهذا المجتمع اختاره الصعاليك، وهؤلاء الوحوش هم الأهل في الحقيقة لا أهل القبيلة، فيقارن الشنفرى بين أهله والوحوش، وكان شديد الإعجاب بمجتمع الوحوش لأنه لا يفشي أسرارهم، ولا يخذل بعضه البعض بخلاف مجتمع أهله، ثم يصف الشنفرى الوحوش بالبسالة والإباء، لكنه هو أبسل منها، فيقول:

" وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ: سَيِّدٌ عَمَلَسَ .. وَأَرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرَفَاءُ جَبِيلُ
هُمْ الْأَهْلُ لَا مُسْتَوْدَعُ السِّرِّ ذَائِعٌ .. لَدَيْهِمْ وَلَا الْجَانِي بِمَا جَرَّ يُخَذَّلُ
وَكُلُّ أَبِي بَاسِلٌ غَيْرَ أَنَّنِي .. إِذَا عَرَضَتْ أُولَى الطَّرَائِدِ أَبْسَلُ
وَإِنْ مَدَّتِ الْأَيْدِي إِلَى الرَّادِ لَمْ أَكُنْ .. بِأَعْجَلِهِمْ إِذْ أَجْشَعُ الْقَوْمِ أَعْجَلُ"⁷³

• تميز أشعارهم بالواقعية:

تميزت أشعارهم بالواقعية، وبعدهم عن الخيال والأوهام، فقد صور الصعاليك في أشعارهم بيئتهم البدوية، والصحراء القاسية، والجبال الخالية، والحيوانات الشاردة، وصوروا مظاهر الطبيعة التي عاشوا بين أطرافها، كطلوع الشمس وغروبها، وتساقط الندى والبرق والرعد، كما وصفوا الحياة التي كانوا يعيشونها وصفاتهم الخلقية الحسنة كالكرم والشهامة والعطف، والشجاعة والقوة والصبر، وصفاتهم السيئة كالنهب والسلب، وسفك الدماء، والجوع والذل والهوان⁷⁴.

⁷² خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 276 - 277.

⁷³ الشنفرى، ديوان الشنفرى، ص 59.

⁷⁴ خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 282.

فنجد تأبط شراً يصف طريقاً في الجبل مخوفاً وضيقاً ووعراً، يسير في الليل من غير علم ولا أثر، ثم يصف شدة الحر كأن السحاب الرقيق يلتف حوله، ثم يقول أن به من نجاى الصيف ويقصد بذلك السحاب الذي ماءه هراق ثم مضى، ويصف صوت اصطدام الماء بالصخر، فيقول:

"وَشَعْبٍ كَشَلَّ الثَّوبِ شَكْسٍ طَرِيقُهُ .. مَجَامِعُ صُوحِيهِ نِطَافٌ مَخَاصِرُ

تَعَسَّفَتْهُ بِاللَّيْلِ لَمْ يَهْدِنِي لَهُ .. دَلِيلٌ وَلَمْ يُحْسِنْ لِي النَّعْتِ خَابِرُ

لَدُنْ مَطْلَعِ الشَّعْرِى قَلِيلٍ أَنْيْسُهُ .. كَأَنَّ الطَّخَا فِي جَانِبِيهِ مَعَاجِرُ

بِهِ مِنْ نَجَاءِ الدَّلْوِ بَيْضٌ أَقْرَاهَا .. جُبَارٌ لِصْمِ الصَّخْرِ فِيهِ قَرَارُ

وَمَزْرَنَ حَتَّى كُنَّ لِلْمَاءِ مُنْتَهَى .. وَغَادَرَهُنَّ السَّيْلُ فِيمَا يُغَادِرُ

بِهِ نُطْفٌ زُرْقٌ قَلِيلٌ تُرَابُهَا .. جَلَا الْمَاءُ عَن أَرْجَائِهَا فَهَوَ حَائِرُ

بِهِ سَمَلَاتٌ مِنْ مِيَاهٍ قَدِيمَةٍ .. مَوَارِدُهَا مَا إِنْ لَهُنَّ مَصَادِرُ"⁷⁵

• السرعة الفنية:

كان الصعاليك لا يعرفون معنى الطمأنينة والاستقرار، مشغولون دائماً بالصراع من أجل العيش، فصوروا في مقطوعاتهم صور صادقة لحياتهم، ولذلك تميز شعرهم بالسرعة الفنية، ومن مظاهر السرعة الفنية، شيوع فن القصائد القصيرة والمقطوعات بينهم، وتخلص الشعراء الصعاليك من المقدمات الطويلة والتصريح⁷⁶.

فنجد في شعر أبي الطحمان القيني وقد كان لصاً خبيثاً وخارباً، نجد مقطوعات قصيرة، ففي إحدى مقطوعاته عاتبته امرأته على غاراته ومخاطرته بنفسه، وقد ألقت اللوم عليه لركوبه الأهوال والمخاطرة بنفسه، فقال لها:

⁷⁵ تأبط شراً، ديوان تأبط شراً، جمع وتحقيق: علي شاكور، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1984، ص 95-96.

⁷⁶ خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 291-292.

"لَوْ كُنْتُ فِي رِيْمَانَ تَحْرُسُ بَابَهُ .. أَرَا جِيلُ أُخْبُوشٍ وَأَغْضَفُ آفُ"⁷⁷

إِذَا لَأَتَتْنِي حَيْثُ كُنْتُ مَنِيَّتِي .. يَحُبُّ بِهَا هَادٍ بِأَمْرِي قَائِفُ

فَمِنْ رَهْبَةٍ آتِي الْمَتَالِفَ سَادِرًا .. وَأَيُّهُ أَرْضَ لَيْسَ فِيهَا مَتَالِفُ"⁷⁸



⁷⁷ ريمان: حصن باليمن، الأغضف: المسترخي الأذن من الكلاب، والآلف: المستأنس بمن يحرسهم.

⁷⁸ الأصفهاني، الأغاني، ج13، ص 7-8.

الفصل الثاني

الصعلكة في العصر الأموي

1. 2. الصعلكة في العصر الأموي:

في هذا الفصل سنتحدث عن الصعلكة في العصر الأموي بالتفصيل، وذلك من خلال بيان أسباب استمرار حركة الصعاليك في العصر الأموي، والحديث عن الطوائف التي كانوا ينتمون إليها الصعاليك مع ذكر أهم صعاليك العصر الأموي، وأبرز صفاتهم، وأشعارهم وما حوته من موضوعات وخصائص.

1. 1. 2. أسباب امتداد الصعلكة إلى العصر الأموي:

من أهم الأسباب التي جعلت ظاهرة الصعلكة تبرز في العصر الأموي هو الفقر، فأدت حياة الفقر إلى الوقوف في وجه الظلم والطغيان، ولذلك سلك بعض الناس من المظلومين والفقراء سبيل الإغارة وسلب الأموال، ومن هنا برزت ظاهرة الصعاليك في العصر الأموي، فاختاروا الإغارة والنهب أسلوباً لحياتهم، فسلك مالك بن الربيع التميمي طريق التصعلك والتلصص، وكان مالك لصاً وفاتكاً وشاعراً في أول أيام الخلافة الأموية، بسبب ما كان بينه وبين بعض أبناء مجتمعه من فروقات.

وكان للعامل الاقتصادي أثراً في حياة الشعراء والناس، حيث ازدادت الفتوحات في ذلك العصر واتسعت رقعة الدولة الأموية، فترك الأفراد البادية، وانتقلوا إلى المدن واتسعت ضرورات الحياة بهم، واختلفت المطالب اليومية للحياة بين رجل المدينة ورجل البادية، وابتعدت الحياة عموماً عما كانت عليه الحياة في العصر الجاهلي، فظهر ذكر المال والترف في أشعار شعراء ذلك العصر، وكذلك من الناحية الأخرى ظهر الفقر والبؤس نتيجة لتفاوت طبقات المجتمع، ولأن الحياة اختلفت وتطورت اختلف معها الشعر في ذلك العصر، ومن أهمها شعر الحماسة القديم، وشعر المديح الذي أصبح اللون البارز في ذلك العصر بسبب اتساع ضرورات الحياة الجديدة.

فتعلق الشعراء بمديح ولادة بني أمية، وكثر في عصرهم الأجواد الكرماء الذين أعطتهم الفتوحات والغزوات ما يشاءون من الأموال، فأغدقوا العطاء على الشعراء، فمدح الشعراء أهل الجود والكرم وذكروا

البخلاء، وارتفع شأن المال في نفوسهم، فأصبح الفقر من أشد عيوب المجتمع، وأصبح الشعراء يذمون ويتهاجون به، فقد كون الفقر طائفة الصعاليك الذين اتخذوا التصعلك وسيلة لطلب المال من الأجواد، وكذلك كثر في ذلك العصر فرض الضرائب والأجور، وفرض الولاة أجوراً باسم عمال الخراج، و باسم نفقات العقود وصك النقود، وكذلك تحصيل الصدقات، فكثر شعر الشكوى من العاملين في جمع الأموال وجورهم وتعسفهم في استخراجهم من الناس.

وبذلك فإن الأزمات الاقتصادية، والتفاوت بين طبقات المجتمع، واشتداد الظلم والجور، ساعدوا على تطور حركة الصعلكة وانتشارها في العصر الأموي، فازداد خطرهما على المجتمع الأموي وبخاصة في أيام خلافة عبد الملك بن مروان الذي ارتفع في عصره أصوات الشكوى من الضرائب والصدقات والمطالبة بالكف عنها، وكذلك الشكوى من بطش السعاة وتعسفهم، واشتداد الفقر عليهم، وانقسم الفقراء نتيجة لذلك إلى قسمين: منهم من اكتفى بالاستغاثة والشكوى، ومنهم من اتخذ التصعلك طريقاً ومنهجاً لحياته ووسيلة لكسب القوت، ولذلك ازداد في عصره ظهور الصعاليك واللصوص، من أمثال: طهمان الكلابي الذي كان شاعراً وفتاكاً وله أخبار مع خلفاء الدولة الأموي ومدح الخليفة عبد الملك بن مروان واستعطافه، والسّمهري الغُكلي الذي سجن في أيام الخليفة عبد الملك بن مروان بسبب لصوصيته⁷⁹.

وأيضاً الأزمات السياسية وانقسام الناس إلى أحزاب و فرق سياسية منها الخوارج والشيعة وحزب الزبير الذين عارضوا خلفاء الدولة الأموية مما أدى إلى كثرة الثورات وظهور الحروب، وقد تطور الشعر في عصر بني أمية بتأثير من الأحزاب السياسية، فكان بعضهم يظهر لبني أمية الموالاة ولا يلبث أن يغدر بهم وينضم إلى أعدائهم، وكان البعض يؤمن بالأحزاب ويحارب معها، وكان بعضهم يكفر بالسلطة والأحزاب معاً، فنظم الشعراء أشعار عبروا بها عن نظرياتهم السياسية.

وكانت هذه الأوضاع السياسية المضطربة سبباً في ظهور طائفة الصعاليك السياسيين، فقد كانوا أشدّ حقداً على الدولة وتوعدوا للعمال والخلفاء، وكذلك كانت هذه الأحزاب السياسية سبباً في الصراع وتضارب المصالح الاقتصادية فكانت تقاتل أشد قتال، وأحييت هذه الحروب قانون الأخذ بالتأثر الذي كان في العصر الجاهلي وهدمه الإسلام، وكذلك ظهر قانون الاستجارة والجوار، ثم برز قانون الخلع الذي نشأ في الجاهلية، فعادت القبائل تخلع بعض أفرادها لكثرة جنائياته أو لسوء أخلاقه، فبدأ الصعلوك الأموي يشكوا

⁷⁹ شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، القاهرة، دار المعارف، ط 8، ص 117-130.

في أشعاره سوء معاملة القبيلة وقسوتها عليه، فكان يصف قبيلته بالتقصير والاستبداد، وكان يهدد القبيلة بالخروج عنها والعيش في الفلاة، حيث المكان الذي لا يذل فيه الإنسان⁸⁰.

فكان القتال الكلابي يصف حياته بعد خلع قبيلته له، وينكر حياة الخمول على نفسه، ويذم قبيلته التي خلعتة ووصفته بالجبن والخمول:

"يا ليتني والمُنَى ليست بِنَافِعَةٍ .. لمالكٍ أو لحصنٍ أو لسيّار
طَوَالُ أَنْصِيَةِ الأعناقِ لم يَجِدُوا .. رِيحَ الإِمَاءِ إذا راحت بِأَرْفَارِ
لا يتركُونَ أخاهُمْ في مُودَّةٍ .. يسفَى عليه دليكَ الذِّلِّ والعارِ⁸¹
ولا يفرونَ والمخزاةُ تَقَرَّعُهُمْ ... حتى يُصِيبُوا بِأَيِّ ذَاتِ أَظْفَارٍ"

فعاش الصعاليك في العصر الأموي حياة البؤس والذل، ودفعهم هذا إلى الإغارة والتصعلك لاكتساب قوت يومهم⁸².

2. 1. 2. طوائف الصعاليك في العصر الأموي:

ومما تجدر الإشارة إليه هو اختلاف طوائف الصعاليك باختلاف العصور، ففي العصر الإسلامي اختفت أغلب تلك الطوائف نتيجة لاختفاء أسباب وجودها، ومنذ قبيل العصر الأموي برزت أربع طوائف من الصعاليك الأمويين، وسنذكرهم بالتفصيل:

- الفقراء، فقد أنشأتهم الحياة السياسية والاقتصادية الجائرة، فالقبيلة التي تعلن موالاتها للدولة وتجد في مقاتلة أعدائها تزجل الدولة لها العطاء وتخفف عنها الصدقات، أما القبائل التي تعلن خصومتها،

⁸⁰ محمد مروة، الصعاليك في العصر الأموي أخبارهم وأشعارهم، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1990، ص 40 -

51.

⁸¹ المؤادة: المضيق، الدليك: الذي ذلك مرة بعد مرة؛ أو هو التراب الذي تسفيهه الريح.

⁸² القتال الكلابي، ديوان القتال الكلابي، تح: إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1989 ص 55-56.

فإن الدولة تسومها أشد العذاب وتجور في فرض الصدقات عليها، ويمثل هذه الفئة: مالك بن الربيب، وطهمان بن عمرو الكلابي، والسمهري العكلي.

- الخلاء والشذاذ، وهم الذين انحرف سلوكهم فخلعتهم قبائلهم وتخلت عنهم، ومن هذه الفئة: مسعود التميمي، وعبيد بن أيوب العنبري، ويعلى الأحوال الإشكري.
- الفارون من العدالة، وهم الذين جنوا واعتدوا على غيرهم وقتلوا الناس، وسرقوا الأموال، واقترفوا الآثام، ففروا من العقاب، أمثال: القتال الكلابي، وعبد الله بن الأحذب السعدي التميمي، ومسعود بن خرشة التميمي.
- الصعاليك السياسيون، وهؤلاء قد خرجوا على الدولة منذرين ومهددين، وساخطين ثائرين، فناصروا العداء للخلفاء والعمال، أمثال: أبو حردبة المازني التميمي، وعبيد الله بن الحر الجعفي، وعبد الله بن الحجاج الثعلبي⁸³.

3. 1. 2. أهم الصعاليك في العصر الأموي:

وأيضاً في العصر الأموي برز عدد من الصعاليك منهم: مالك بن الربيب، جدر العكلي المحرزي، السمهري بن بشر العكلي، القتال الكلابي، يعلى الأحوال الأزدي، عرقل السعدي، أبو حردبة المازني، مسعود بن خرشة، عبيد بن أيوب العنبري، أبو النشاش التميمي، الأحيمر السعدي، الهيزدان بن خطر، القتال الباهلي، عبد الله بن الأحذب السعدي، بهذل الطائي، طهمان بن عمرو الكلابي، عبد الله بن الحر الجعفي، شطاظ الضبي.

وسنكتفي أيضاً كما ذكرنا بذكر الصعاليك الذين سنتناول أشعارهم في الفصل الثالث، وهم: القتال الكلابي، مالك بن الربيب، عبيد بن أيوب العنبري، طهمان بن عمرو الكلابي.

⁸³ حسين عطوان، الشعراء الصعاليك في صدر الإسلام والعصر الأموي، بيروت، دار الجيل، ط3، 1997، ص 85 -

• القتال الكلابي:

"عبد الله بن المضرحي بن عامر بن الهصان بن كعب بن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة"، ويكنى بأبي المسيب، وهو شاعر إسلامي كان في الدولة الأموية، والقتال لقب لقّب به لتمرده وكثرة فتكه، وكان القتال شجاعاً جريئاً وشاعراً صعلوكاً، وكان دنيء النفس، بغضته عشيرته وخلعته لكثرة ما يلحقها بسبب جنائياته وأذاه، فكانت لا تمنعه إذا لحق به مكروه⁸⁴.

وكان القتال شاعراً وفارساً وهو القائل:

"إذا همّ همّاً لم ير الليل غمّة .. عليه ولمّ تصعب عليه المراكب
قرى الهمّ إذ ضاف الرّماع فأصبحت .. منازلُه تَعْتَسُ فيها النّعالِبُ
جليدٌ كريمٌ خيمُهُ وطبّاعُهُ .. على خيرٍ ما تُبْنَى عليه الضّرائبُ
إذا جاعَ لم يفرّجْ بأكله ساعة .. ولم يَبْتَسِ مِنْ فَقْدِها وهو ساعِبُ"⁸⁵

ولكثرة تمرده وجنائياته، نجد في شعره من حيث الموضوعات أنواع الصراع في البادية، فقد صور في بعض أشعاره المنازعات القبلية، وخاصة لبني أبي بكر ولبني جعفر، ومنها ما هو صورة للصراع بينه وبين قبيلته لتخليها عنه لكثرة جرائمه، وكان يتمنى ألا يكون منتسباً إليها:

"يا لَيْتَنِي والمُنَى لَيْسَتْ بِنَافِعَةٍ .. لِمَالِكٍ أَوْ لِنَصْرِ أَوْ لَسَيَّارِ
طَوَالَ أَنْصِيَةِ الْأَعْنَاقِ لَمْ يَجِدُوا .. رِيحَ النَّسَاءِ إِذَا رَاحَتْ بِأَرْفَارِ
لَمْ يَرْضَعُوا الدَّهْرَ إِلَّا تَذَى وَاحِدَةٍ .. لَوَاضِحِ الْوَجْهِ يَحْمِي بِأَحَةِ الدَّارِ"⁸⁶

وكان القتال كثير الجنایات سريعاً إلى السيف لذلك تخلت عنه قبيلته وعن حمايته، فكان موقفه شاذ مع تلك القبيلة موغل في العصبية، "وكان يصور في شعره الصراع بين الدم النقي والدم الدخيل ولذلك كثر حديثه عن كراهية الإماء، وكثر اعتزازه من نسل الحرائر:

⁸⁴ البغدادي، خزانة الأدب، ج9، ص112.

⁸⁵ الكلابي، ديوان القتال الكلابي، ص29.

⁸⁶ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج2، ص705.

أَنَا ابْنُ أَسْمَاءَ أَعْمَامِي لَهَا وَأَبِي .. إِذَا تَرَامِي بَنُو الْإِمَوَانِ بِالْعَارِ
قَدْ جَرَّبَ النَّاسُ عُودِي يَقْرَعُونَ بِهِ .. وَأَقْصَرُوا عَنْ صَليْبٍ غَيْرِ خَوَارِ
مَا أَرْضَعِ الدَّهْرُ إِلَّا نَذْيَ وَاضِحَةٍ .. لَوَاضِحِ الْوَجْهِ يَحْمِي حَوَزةَ الْجَارِ " ⁸⁷

وكان يصف نفسه أنه يحمل نفس شريسة يحتقر قبول العقل أو الدية في العلاقات العدائية ولا يرى شيئاً أفضل من الثأر.

وكان مثله الأعلى في الشخصية هو الصعلوك الجاهلي، وتردد ذلك في أبياته كأنها صدرت عن عروة بن الورد أو تأبط شراً أو الشنفرى، فيقول:

" جَلِيدٌ كَرِيمٌ خِيَمُهُ وَطِبَاعُهُ .. عَلَى خَيْرِ مَا تُبْنَى عَلَيْهِ الصَّرَائِبُ
إِذَا جَاعَ لَمْ يَفْرَحْ بِأَكْلَةِ سَاعَةٍ .. وَلَمْ يَبْتَئِسْ مِنْ فَقْدِهَا وَهُوَ سَاغِبُ
يَرَى أَنْ بَعْدَ الْعُسْرِ يُسْرًا وَلَا يَرَى .. إِذَا كَانَ يُسْرٌ أَنَّ الدَّهْرَ لَارِبٌ " ⁸⁸

وتتميز غزل القتال بذكر أسماء نساء كثيرات، مثل: أميمة، وطيبة، وعالية، وليلى، وشميلة، وغيرهن، وكان يعبر عن الحب في شعره ويظهر عنده القلق الذي يهزه نحو الاستقرار إلى الموطن والمكان الذي يحبه، ولذلك ظهرت عنده أسماء الأماكن بكثرة، وهي منازل لقومه بني عامر، وكان يعبر في بعض أشعاره عن حاجته الشديدة إلى أن يكون إنساناً طبيعياً، وأن يجد قلوباً تحبه وتقبل عليه، فيقول:

" سَمِعْتُ وَأَصْحَابِي بِذِي النَّخْلِ نَازِلًا .. وَقَدْ يَشْعَفُ النَّفْسَ الشَّعَاعَ حَبِيبُهَا
دَعَاءَ بِذِي الْبُرْدَيْنِ مِنْ أُمِّ طَارِقٍ .. فَيَا عَمْرُو هَلْ تَبْدُو لَنَا فَتَجِيبُهَا " ⁸⁹

⁸⁷ الأصفهاني، الأغاني، ج24، ص 98-99.

⁸⁸ الكلابي، ديوان القتال الكلابي، ص26.

⁸⁹ محمد طريفي، ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2004، ج2، ص 49 - 50.

وتميز القتال بصفات جسده كانت عوناً له في حياة الصعلكة التي تحتاج إلى العدو وسرعة الفرار، فكان القتال خفيفاً نحيلاً قليل اللحم، سريع العدو لاعتماده في حياته على قطع الطريق وحاجته إلى الهرب السريع، وكان طويل القامة، وكان القتال يتصف بحمرة اللون وظهر ذلك في قوله:

" وَرِثْنَا أَبَانَا حُمْرَةَ اللَّوْنِ عَامِراً .. وَلَا لَوْنٌ أَذْنَى لِلْهَجَانِ مِنَ الْحُمْرِ " ⁹⁰

وأما أشعاره فقد تميزت بأن مجموعة منها يتعلق بالمبادئ الجاهلية وتغلب عليها الاستهتار بالقتل والتشرد والتلصص، وكذلك تظهر في أشعاره التنديد بقبيلته التي تقاعست عن حمايته وخلعها إياه، ومجموعة أخرى من أشعاره تميزت بالبساطة والنقاء والقوة والتعبير المباشر والنسق البدوي الأصيل، وكذلك يصف خوفه من السلطان وفزعه من العقاب، والنزوع إلى الاستقرار والحنين إلى أزواجه وأولاده ⁹¹.

وكان شعره يتميز أيضاً بالتعارض بين التمرد والثورة والاندفاع تارة، وبين ضعف المرء الذي يربطه بالمكان والبيت تارة أخرى، ومثال ذلك ما يقوله وقد فر من السجن فرأى الأظعان من بعيد، يقول:

"بَكَيْتُ بِخُلَصَى شَنَّةٍ شَدَّ فَوْقَهَا .. عَلَى عَجَلٍ مُسْتَخْلَفٍ لَمْ تَبَلِّ
جَدِيدٌ كُلاهَا مُنْهَجَّ حَجَرَاتُهَا .. فَلِلْمَاءِ سَحٌّ مِنْ طَبَابٍ مَشْلُشٍ"

ويقصد القتال هنا أنه بكى بدموع تشبه في غزارتها ما ترشح به قربة بليت حجراتها، ولم يشدها المسئول عنها شداً محكماً ⁹².

ولعل سبب اتخاذ الصعلكة والفتك نجمت عن حبه لابنة عمه العالية، فأوقعته في أول جريمة ارتكبها دفاعاً عن نفسه لا تعمداً للقتل، فأصبح يُطارَد من أهل القَتِيل ومن السلطان والقانون، ومن ثم هانت عليه الجريمة فأصبح قتالاً مشرداً ومكروهاً، فقد كان يتحدث إلى العالية ابنة عمه، فنهاه أخوها زياد وحلف إن وجده عندها ثانية ليقتلنه، ولم يحسب القتال حساباً لهذا الوعيد فعاود زيارتها.

⁹⁰ الكلابي، ديوان القتال الكلابي، ص 15 - 16.

⁹¹ عطاوان، الشعراء الصعاليك في صدر الإسلام والعصر الأموي، ص 191 - 192.

⁹² الكلابي، ديوان القتال الكلابي، ص 27.

فبصر به زياد وكان يترقبه فاستل سيفه ليقتله، فهرب القتال واتبع زياد أثره، والقتال كان يناشده الله والرحم، وزياد يصر على قتله، وفي الطريق يجد القتال رمحاً مركزاً أو سيفاً، فيأخذه ويقضي به على زياد، فهرب القتال وخرج أصحاب القتل يطلبونه، وسمعت الدولة بجريمته فبحثت عنه، وإثر هذه الجريمة يستشعر القتال الندامة لما اقترفه فيقول:

" نَهَيْتُ زِيَادًا وَالْمَقَامَةُ بَيْنَنَا .. وَذَكَرْتُهُ أَرْحَامَ سَعْرِ وَهَيْتُمْ
فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّهُ غَيْرُ مُنْتَهٍ .. أَمَلْتُ لَهُ كَفِّي بِلَذْنِ مُعَوِّمٍ
وَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّنِي قَدْ قَتَلْتُهُ .. نَدِمْتُ عَلَيْهِ أَيَّ سَاعَةٍ مَنَدَمٍ⁹³

واشتد الطلب على القتال بعد مقتل زياد، فأصحاب القتل يطلبونه، وكان مروان بن الحكم يومئذ والياً على المدينة، فأمر الولاة بالبحث عن القتال وأجزل الجائزة لمن دل عليه، فمر القتال بابنة عمه تدعى زينب، متتخية عند الماء، فدخل عليها، فألقت ثيابها عليه، ولبس برقعها، وكانت تضع حناء، فأخذ منها ولطخ يديه ثم تتحت عنه، فمر الطلب به، فلما أتوا ظنوا أنه زينب، فقالوا لها: أين الخبيث، فقال: أخذ من هنا، لغير الوجه الذي أراد أن يأخذه، فلما عرف أنهم ابتعدوا خرج في اتجاه آخر، فخرج إلى جبل عماية واستتر فيه، وقال:

" فَمَنْ مُبْلَغُ فِتْيَانِ قَوْمِي أَنَّنِي .. تَسْمَيْتُ لَمَّا شَبَّتِ الْحَرْبُ زَيْنَبَا
وَأَرْخَيْتُ جِلْبَابِي عَلَى نَبْتِ لِحِيَّتِي .. وَأَبْدَيْتُ لِلنَّاسِ الْبَنَانَ الْمُخَضَّبَا "

فمكث القتال في جبل عماية زماناً، يأتي أخوه له بما يحتاجه، وألفه في ذلك الجبل نمر كان معه يأوي في الشعب⁹⁴.

⁹³ الأصفهاني، الأغاني، ج24، ص 91 - 92.

⁹⁴ الأصفهاني، الأغاني، ج24، ص 92 - 93.

• مالك بن الربيع المزني:

وهو "مالك بن الربيع بن حوط بن قرط بن حسل بن ربيعة بن كابية بن حرقوص بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم"، وكان شاعراً ولصاً فاتكاً، نشأ في بادية بني تميم في البصرة، وكان من شعراء الإسلام في أول أيام الخلافة الأموية⁹⁵، وكان مالك من أجمل العرب وأبينهم، وأحسنهم ثياباً⁹⁶.

وكان صاحب حرب لا يكلف بغيرها، وعُرف أنه رجل مقدم لا يهاب الموت ولا تفاقم الحوادث، وكان فاتكاً ولصاً مشهوراً امتنعت الصلعة حرفة وعُرف مسالكها، وخبر طرائقها، وقد نمت في نفسه روح الخروج والتمرد، حتى صارت قيادته أمراً صعباً، وكان يقول:

"ولا تحسداني بارك الله فيكما .. من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا
خذاني فجراني ببردى إليكما .. فقد كنت قبل اليوم صعباً قيادياً " ⁹⁷

وكان مالك لصاً فاتكاً يقطع الطريق مع صاحبه شظاظ الضبي الذي ضرب المثل به في تلصصه فيقال: "ألص من شظاظ"⁹⁸، وقد تميز مالك بصفات الفارس النبيل، فكان ثابتاً في المعارك إذا أدبرت الخيل، وكان يستجيب للداعي إذا طلب النصر، وكان كريماً يطعم الطعام، وكان عفيفاً عن شتم ابن عمه، وكان يتميز بالصبر في الحرب، وهي صفات تحلى بها فرسان الشعراء الجاهليين، أمثال عنترة وعامر بن الطفيل⁹⁹.

"وكان مالك يقطع الطرق من ناحية فارس، هو وأصحاب له منهم شظاظ، وأبو حردبة، وغويث أحد رجال كعب بن مالك، فساموا الناس شراً، فطلبهم مروان بن الحكم، وكان عامل معاوية على المدينة،

⁹⁵ الأصفهاني، الأغاني، ج22، ص201.

⁹⁶ أبو عبيد البكري، سمط اللآلئ في شرح أمالي القالي، تح: عبد العزيز الميمني، بيروت، دار الكتب العلمية، ج1، ص418 - 419.

⁹⁷ طريفي، ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، ج2، ص181.

⁹⁸ البغدادي، خزانة الأدب، ج2، ص210.

⁹⁹ طريفي، ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، ج2، ص141.

فهربوا، فكتب إلى الحارث بن حاطب وكان عامله على بني عمرو بن حنظلة فطلبهم، فهربوا منه، وبلغ مالك بن الريب أن الحارث بن حاطب يتوعده، فقال:

تَأْلَى حِلْفَةً فِي غَيْرِ جُرْمٍ .. أَمِيرِي حَارِثُ شِبْهِ الصَّرَارِ¹⁰⁰
عَلَيَّ لِأَجْلَدَنْ فِي غَيْرِ جُرْمٍ .. وَلَا أَدْنَى فَيَنْفَعْنِي اعْتَذَارِي
وَقُلْتُ وَقَدْ ضَمَمْتُ إِلَيَّ جَاشِي .. تَحَلَّلْ لَا تَأَلَّ عَلَيَّ حَارِ
فَأِنِّي سَوْفَ يَكْفِينِيكَ عَزْمِي .. وَنَصُّ الْعَيْسِ¹⁰¹ بِالْبَلَدِ الْقَفَارِ
وَعَنْسُ ذَاتِ مَعْجَمَةِ أُمُونٍ .. عَلْنَدَاةُ مُوثِقَةُ الْقَفَارِ¹⁰² "103

وبعد حياة مليئة بالتشرد والصعلكة وقطع الطرق، سحب مالك بن الريب الأمير سعيد بن عثمان بن عفان لما ولاه معاوية على خراسان، وكان سعيد بن عثمان يمر بالبادية يريد خراسان، ومالك في جماعة من أصحابه، فقال سعيد: ويحك يا مالك؟ بلغتني عنك العداوة وقطع الطرق فما الذي يدعوك إلى ذلك؟ فقال مالك: أصلح الله الأمير، عجزه عن مكافأة الإخوان، فقال سعيد: فإن أغنيتك واستصحبتك، هل تكف عما تفعل وتتبعني؟ قال مالك: "نعم، أصلح الله الأمير، أكف كفاً ما كف أحد أحسن منه"، فصاحبه وأمر له خمسمائة دينار في كل شهر، وبقي معه حتى قتل بخراسان¹⁰⁴.

ولما أحس مالك بن الموت قال يذكر شهلة ابنته:

"تُسَائِلُ شَهْلَةً قَفَّالَهَا .. وَتَسْأَلُ عَنْ مَالِكٍ مَا فَعَلَ
ثَوَى مَالِكٍ بِبِلَادِ الْعَدُوِّ .. وَتَسْفَى عَلَيْهِ رِيَا حِ الشَّمْلِ

¹⁰⁰ الصرار: ما يشد فوق خلف الناقة من خيط.

¹⁰¹ نص العيس: إجهادي النوق على السير الشديد.

¹⁰² العنس: الناقة الصلبة القوية، ذات مجمعة: ذات قوة وسمن وبقاء على السير، أمون: موثقة الخلق مأمونة الكلال،

علنداة: ضخمة شديدة طويلة.

¹⁰³ الأصفهاني، الأغاني، ج22، ص 201 - 202.

¹⁰⁴ البغدادي، خزنة الأدب، ج2، ص 210 - 211.

لذلك شَهْلَة جَهَزْتَنِي .. وَقَدْ حَانَ دُونَ الْإِيَابِ الْأَجَلُ " ¹⁰⁵

وقد ذكر الأصفهاني في كتابه الأغاني عن ابن الأعرابي أنه قال: "مرض مالك بن الربيع عند قفول سعيد بن عثمان من خراسان في طريقه، فلما أشرف على الموت تخلف معه مرة الكاتب ورجل آخر من قومه من بني تميم وهما اللذان يقول فيهما:

أَيَا صَاحِبِي رَحَلِي دَنَا الْمَوْتُ فَانْزِلَا .. بِرَابِيَةِ إِنْ مَقِيمٌ لِيَالِيَا

ومات في منزله ذلك، فدفناه، وقبره معروف هناك". ¹⁰⁶

• طهمان بن عمرو الكلابي:

هو طهمان عمرو بن سلمة بن سَكَن بن قُرَيْط بن عبد ابن أبي بكر ابن كلاب وكان في زمن عبد الملك، وكان شاعر إسلامي، وهو أحد صعلاليك العرب وفتاكهم في العصر الأموي ¹⁰⁷.

وأخبار هذا الصعلوك قليلة جداً، وإنما كان من المعروف أنه من صعلاليك الدولة الأموية وفتاكها، قضى حياته مشرداً في الجبال، ساعياً وراء تأمين لقمة عيشه عن طريق الإغارة والسلب والنهب، وكانت تطول أيام تشرده، فكان يتشوق إلى خليلته فيزجر نفسه عن التعلق والتشوق إليها، وكان مشرد في الجبال والفلات، يقول:

" فَيَا لَكَ مِنْ نَفْسٍ لَجُوجٍ أَلَمْ أَكُنْ .. نَهَيْتَكَ عَنْ هَذَا وَأَنْتَ جَمِيعُ

وَمَا زَالَ صَرَفُ الدَّهْرِ حَتَّى رَأَيْتَنِي .. أَطْلَى عَلَى سَهْوَانٍ فَهُوَ مَرِيْعٌ " ¹⁰⁸

¹⁰⁵ مالك بن الربيع، ديوان مالك بن الربيع، تح: نوري القيسي، "مجلة معهد المخطوطات العربية"، مجموعة 15، ج1، ص 53.

¹⁰⁶ الأصفهاني، الأغاني، ج22، ص211.

¹⁰⁷ البكري، سمط اللآلئ، ج1، ص473.

¹⁰⁸ عبد عون الروضان، موسوعة شعراء صدر الإسلام والعصر الأموي، الأردن، دار أسامة، ط1، 2001، ص178.

وعلى صغر ديوانه وقلة عدد أشعاره، إلا أنه تميز بكونه فارساً مغوار شارك في بعض الأيام، وكان يحمل شخصية مهابة وقوية وقاسية، وكان عندما يغير ويسرق، يفعل ذلك دون خوف أو خشية، وحين يرد الطلب يطلب بذكاء، وكان إذا هدد نفذ تهديده، ولو كان في أقرب الناس إليه ¹⁰⁹.

• عبيد بن أيوب العنبري:

هو عبيد بن أيوب العنبري، ينتمي إلى بني العنبر، يكنى بأبي المطراب أو أبي المطراد، كان من شعراء العصر الأموي، وكان لصاً وفتاكاً حاذقاً ¹¹⁰.

وكان عبيد قد جنى جناية، فأمر به السلطان، وأباح دمه، فهرب عبيد في نواحي الأرض، وابتعد من شدة خوفه، ومكث زمناً في الفيافي، وكان يخبر في شعره أنه يرافق السعلاة والغول، ويبات مع الأفاعي والذئب، ويأكل مع الوحوش والظباء ¹¹¹.

ويقول صاحب السمط: "عبيد شاعر إسلامي وكان لصاً مبرراً فنذر السلطان دمه وخلعه قومته، فاستصحب الوحوش وأنس بها وأنست به، وله أشعار كثيرة، وكان يزعم أنه يرافق الغول والسعلاة ومن قوله:

فَلِلَّهِ دَرُّ الْغُولِ أَيُّ رَفِيقَةٍ .. لصاحبٍ فَقْرٍ خَائِفٍ يَسْتَرْ
أَرْنَتْ بَلَحِنٍ بَعْدَ لَحْنٍ وَأَوْقَدَتْ .. حَوَالِي نِيرَاناً تَبُوحُ وَتَزْهَرُ" ¹¹²

وقال في نحول جسمه:

"حَمَلْتُ عَلَيْهَا مَا لَوْ أَنَّ حَمَامَةً .. تُحْمَلُهُ طَارَتْ بِهِ فِي الْجَفَاجِفِ

¹⁰⁹ طريفي، ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، ج 1، ص 333.

¹¹⁰ الزركلي، الأعلام، ج 4، ص 144.

¹¹¹ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج 2، ص 784.

¹¹² البكري، سمط اللآلئ، ج 1، ص 384.

رُحَيْلًا وَأَقْطَاعًا وَأَعْظَمَ وَامِقٍ .. أَضْرَ بِهِ طُولُ السَّرَى وَالْمَخَافِ" ¹¹³

4. 1. 2. أبرز صفات الصعاليك في العصر الأموي:

وقد كان صعاليك العصر الأموي يتألفون مع سابقهم من صعاليك العصر الجاهلي بصفات ويتميزون عنهم بصفات بأخرى، فمن المتألفة والمتشابهة، الفقر الذي يجمع صعاليك العصرين وكذلك صفة القوة والشجاعة والإقدام، وعدم الخوف من الموت، والتشرد والتولع بالصحراء، وأوجه الاختلاف تتمثل في أن بعض الصعاليك في العصر الأموي غلب عليهم الرعب من قوة وتمكن السلطان، كما أن بعضهم الآخر اشتد بهم الشوق إلى أهلهم وحبيباتهم وملاعب صباهم ¹¹⁴.

5. 1. 2. شعر الصعلكة وموضوعاته في العصر الأموي:

- وصف السجون.
- الحنين إلى الاستقرار.
- الاعتذار والتوبة.
- التشرد والتأبد.
- مصاحبة الحيوان.
- الهجاء والتهديد.
- مدح العمال والخلفاء والمتمردين.

وسنتناول الحديث عن هذه الموضوعات بالتفصيل.

¹¹³ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج2، ص786.

¹¹⁴ مروة، الصعاليك في العصر الأموي، ص85-86.

• وصف السجون:

فقد تميز به شعراء صعاليك الأموية عن شعراء صعاليك الجاهلية، فاستحدثوا هذا الموضوع نتيجة الحياة السياسية والاجتماعية في العصر الأموي، واختلافها عن العصر الجاهلي فكان من أهم موضوعاتهم الشعرية.

ولأن حياتهم اختلفت عن حياة سابقيهم في العصر الجاهلي، الذين كانوا يعيشون في مجتمع تحكمه القبيلة ليس فيه دولة ولا سلطان له، أما صعاليك العصر الأموي فعاشوا في مجتمع تحكمه السلطة والدولة، التي أرست لها القوانين والقواعد وبسطت نفوذها على رعيته، فالصعاليك الأمويون كانوا معتدين على الناس، احترفوا السلب والنهب، واضطروا إلى قتل بعض الناس والعمال لإتمام غاراتهم ونيل غاياتهم، فعدتهم الدولة من المفسدين الخارجين عن القانون¹¹⁵.

فكان على السلطة تعقب الناس ومعاينة كل مفسد ولص، ففرضت الدولة المكافآت المغرية لمن يستطيع القبض عليهم، فكان ممن وقع تحت حكم السلطة الأموية مالك بن الربيع، وأبو النشاش التميمي، وجحدر العكلي، وشظاظ الضبي، والقتال الكلابي، وعبيد الله بن الحر الجعفي، فكان عقابهم على حسب اقترافهم الذنب أما حبساً أو جلداً أو قتلاً، من هنا ظهر وصف السجون، فوصف صعاليك هذا العصر القيود الحديدية وثقلها على أرجلهم، وذكروا ما كانوا يعانونه من شدة الآلام التي كانت تبكيهم.

فيصف القتال الكلابي الذي يُعرف بفتكه وكثرة جناياته، ما واجهه في السجون من ظلم الحراس وعنفهم دون شفقة أو رحمة، وكيف يتعرضون للضرب والتعذيب، ووصف طرق التعذيب وأدواته، فيقول في سوء المعاملة من الحراس:

" وَكَالِيْ بَابِ السِّجْنِ لَيْسَ بِمُنْتَهٍ .. وَكَانَ فِرَارِي مِنْهُ لَيْسَ بِمُؤْتَلِي

إِذَا قُلْتُ رَقَّهْنِي مِنَ السِّجْنِ سَاعَةً .. تَدَارَكَ بِهَا نُعْمَى عَلَيَّ وَأَفْضَلِ

يَشُدُّ وَثَاقِي عَابِساً وَيَتَلْنِي .. إِلَى حَلَقَاتٍ فِي عَمُودٍ مُرْمَلٍ

¹¹⁵ عطوان، الشعراء الصعاليك في صدر الإسلام والعصر الأموي، ص131.

أَقُولُ لَهُ وَالسَّيْفُ يَعْصِبُ رَأْسَهُ .. أَنَا ابْنُ أَبِي أَسْمَاءَ غَيْرَ التَّحُلِّ¹¹⁶

فكان الصعاليك يتحدثون عن ظلم الحراس وشدة بأسهم، فصاغوا في أشعارهم أشكال التعذيب وآثاره على أجسامهم¹¹⁷.

• الحنين إلى الاستقرار:

لقد غلب على أشعار الصعاليك في العصر الأموي الحنين إلى الاستقرار بعد حياة التشرد والمطاردة، وابتعادهم عن الأوطان والأهل والأحبة، فمالك بن الريب أقسم أن يترك عصباته ويبتعد عن حياة الصعلكة والتلصص، التي قضى وقتاً بها، مبتعداً عن وطنه وأهله، بعدما أحس بشوق إلى زوجته وإلى حياة الراحة بجانبها¹¹⁸.

وقد ظهر ذلك عند السمهري بن بشر العكلي وقد كان شاعراً فتاكاً ولصاً له عدة غارات، وقُبض عليه وسجن عدة مرات، وانتهت حياته بالقتل، فيصف شدة لوعته وحنينه إلى صاحبتة ليلي، فيزوره طيفها وهو بداخل السجن وموثوق بالقيود، ويتمنى لو جمع القدر بينهما، فيقول:

" أَلَا طَرَقْتَ لَيْلِي وَرَجَلِي رَهِيْنَةً .. بِأَشْهَبَ مَشْدُوْدٍ عَلَيَّ مَسَامِرُهُ

فَإِنْ أَنْجُ يَا لَيْلِي، فَزُبِّ فِتَى نَجَا .. وَإِنْ تَكُنِ الْآخَرَى، فَشَى أَحَاذِرُهُ

وَمَا أَصْدَقَ الطَّيْرَ الَّتِي بَرَحَتْ بِنَا .. وَمَا أَغْيَفَ اللَّهْبِي، لَا عَزَّ نَاصِرُهُ¹¹⁹

وكان بعضهم يقف على الأطلال ويصور الاشتياق إلى الديار والرغبة في الاستقرار، فكانوا يصفون حنينهم إلى صاحباتهم والاشتياق إلى الوصال والوداد، وذلك مثل قول عبيد بن أيوب الذي طغى عليه الشوق والحنين إلى الوطن:

¹¹⁶ الكلابي، ديوان القتال الكلابي، ص 75-76.

¹¹⁷ عطوان، الشعراء الصعاليك في صدر الإسلام والعصر الأموي، ص 110-112.

¹¹⁸ مروة، الصعاليك في العصر الأموي، ص 117.

¹¹⁹ عبد المعين الملوحي، أشعار اللصوص وأخبارهم، منشورات دار أسامة، ص 51-52.

" أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَغَيَّرَ بَعْدَنَا .. عَنِ الْعَهْدِ قَارَاثُ الظُّلَيْفِ الْفَوَارِدُ¹²⁰

وَهَلْ رَامَ عَنِ عَهْدِي وَدَيْكَ مَكَانَهُ .. إِلَى حَيْثُ يُفْضَى سَيْلُ ذَاتِ الْمَسَاجِدِ¹²¹

• الاعتذار والتوبة:

ندم الصعاليك على ما قدموه من أعمال سيئة، فسلخوا طريق التوبة والاستغفار، ومضوا يفكرون في الثواب والعقاب والخوف من عذاب الآخرة، نتيجة أعمالهم السيئة التي اقترفوها في شبابهم، فتوجه عبيد بن أيوب إلى الله تعالى بعدما قضى شطراً من حياته في الفتك والصلعكة، خائفاً يطلب من ربه التوبة والاستغفار، ويرجو عفو وغفرانه، فيقول:

" يَا رَبِّ عَفْوِكَ عَنْ ذِي تَوْبَةٍ وَجَلٍ .. كَأَنَّهُ مِنْ حِذَارِ النَّاسِ مَجْنُونُ

قَدْ كَانَ قَدَّمَ أَعْمَالاً مُقَارِبَةً .. أَيَّامَ لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ وَلَا دِينُ¹²²

ومنهم من تاب وتوقف عن السلب والنهب إلا أنه أثناء توبته نراه يحن إلى أيام اللصوصية والفتك، مثل الأحيمر السعدي الذي كان ينهب القوافل وما فيها من بضائع ثمينة، حين يقول:

" أَشْكُو إِلَى اللَّهِ صَبْرِي عَنْ رَوَاجِلِهِمْ .. وَمَا أُلَاقِي إِذَا مَرَّتْ مِنَ الْحَزَنِ

قُلْ لِلصُّوَصِ بَنِي اللَّخْنَاءِ يَحْتَسِبُوا .. بَزَّ الْعِرَاقُ وَيَنْسُوا طُرْفَةَ الْيَمَنِ

فُرُبَّ ثَوْبٍ كَرِيمٍ كُنْتُ آخِذُهُ .. مِنَ التِّجَارِ بِلَا نَقْدٍ وَلَا ثَمَنِ¹²³

¹²⁰ القارات: جمع قارة؛ وهي أصاغر الجبال وأعظم الآكام، الظليف: موضع في شعر عبيد، الفوارد: جمع فاردة؛ وهي المنفردة.

¹²¹ طريفي، ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، ج1، ص 390.

¹²² طريفي، ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، ج1، ص 412 - 413.

¹²³ الحسن الأمدي، المؤلف والمختلف، تح: عبد الستار فراج، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1961، ص

• التشرد والتأبد:

وصف الصعاليك حياة المصاعب والمتاعب إثر فرارهم من السلطة، وما في تلك الحياة من صعوبة العيش وكثرة الشقاء والترحال، فيصف مسعود بن خرشة التميمي الذي كان شاعراً بدوياً ومن لصوص بني تميم خوفه، وأنه لا يجد الأمان والأنس إلا في الصحاري البعيدة، والأماكن الخالية الموحشة¹²⁴، حين قال:

" أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً .. بُوَعْتَاءَ فِيهَا لِلطَّبَاءِ مَكَانُسُ
وَهَلْ أَنْجَوْنَ مِنْ ذِي لَبِيدٍ بَن جَابِرٍ .. كَأَنَّ بَنَاتِ الْمَاءِ فِيهِ الْمُجَالِسُ
وَهَلْ أَسْمَعَنَ صَوْتَ الْقَطَا تَتَدَبُّ الْقَطَا .. إِلَى الْمَاءِ مِنْهُ رَابِعٌ وَخَوَامِسُ " ¹²⁵

• مصاحبة حيوان الصحراء:

رافق صعاليك العصر الأموي حيوان الصحراء كما كان الأمر عند صعاليك العصر الجاهلي فاستأنسوا بها واطمأنوا إليها، فكانت تشاركهم حياتهم، وقد تميز بذلك القتال الكلابي، الذي وصف مصاحبته للنمر وإلفه له، فيقول:

" وَلِي صَاحِبٌ فِي الْغَارِ هَذَاكَ صَاحِباً .. هُوَ الْجَوْنُ إِلَّا أَنَّهُ لَا يُعَلَّلُ
إِذَا مَا النَّقْيَيْنَا كَانَ جُلَّ حَدِيثِنَا .. صَمَاتٌ وَطَرْفٌ كَالْمَعَابِلِ أَطْحَلُ ¹²⁶
تَضَمَّنَتْ الْأُرْوَى لَنَا بَطْعَامِنَا .. كِلَانَا لَهُ مِنْهَا نَصِيبٌ وَمَأْكُلُ
فَأَغْلِبُهُ فِي صَنْعَةِ الزَّادِ إِنَّنِّي .. أُمِيطُ الْأَذَى عَنْهُ وَلَا يَتَأَمَّلُ
وَكَاثَتْ لَنَا قَلْتُ بِأَرْضٍ مَضِلَّةٍ .. شَرِيعَتُنَا لِأَيَّتِنَا جَاءَ أَوَّلُ " ¹²⁷

¹²⁴ عطوان، الشعراء الصعاليك في صدر الإسلام والعصر الأموي، ص125.

¹²⁵ الأصفهاني، الأغاني، ج21، ص177.

¹²⁶ صمات: سكوت، المعابل: جمع معبلة وهي النصل الطويل العريض، أطحل: لون بين الغبرة والبياض بسواد قليل، وقيل لونه كلون الطحال.

¹²⁷ الكلابي، ديوان القتال الكلابي، ص77 - 78.

• الهجاء والتهديد:

فقد قام صعاليك الأموية بتهديد قبائلهم التي لم تتصرهم ولم تأخذ بأرائهم، فكان القتال الكلابي يسخر برجل من قبيلته ويصفه بالبخل والشح، فإن أفراد قبيلته اشتد عليهم الجوع فأصبحوا ضعفاء، بينما هو سمين يأخذ الزاد بمفرده، فكان القتال الكلابي سخياً كريم اليد، صاحب شكيمة وأصالة، فيقول:

" يا أَيُّهَا الْعَفِجُ السَّمِينُ وَقَوْمُهُ .. هَزَلَى تُجَرَّرُهُمْ ضِبَاغُ جَعَارِ

أَطْعِمَ وَلَسْتُ بِفَاعِلٍ وَلِتَعْلَمَنَّ .. أَنَّ الطَّعَامَ يَحُورُ شَرَّ مَحَارٍ " ¹²⁸

• مدح العمال والخلفاء والمتمردين:

اضطرت ظروف صعاليك العصر الأموي إلى نظم هذا النوع من القصائد، ولم يكن همهم المنصب أو العطاء، فقد كانوا يلقون هذه القصائد إثباتاً لحسن سيرتهم وطلباً لرضاهم عنهم، أو استعطافاً لهم أو خوفاً من العقاب، وإما تنويعاً بالمتمردين ¹²⁹.

فنجد في مقطوعة لمسعود بن خرشة يقولها بعدما سرق مع رفاقه إبلاً من مالك بن سفيان الفقعسي، وكان معه من قومه رجلين، فخرجوا بها إلى اليمامة لبييعوها، فاعترض عليهم أمير من بني أسد، ثم عُزل ووُلِّي مكانه رجلٌ من بني عقيل، فقال مسعود:

" يَقُولُ الْمَرْجِفُونَ: أَجَاءَ عَهْدٌ .. كَفَى عَهْداً بِتَنْفِيزِ الْقِلَاصِ

أَتَى عَهْدُ الْإِمَارَةِ مِنْ عُقِيلٍ .. أَغَرَّ الْوَجْهَ رُكْبٌ فِي النَّوَاصِي

حُصُونُ بَنِي عُقِيلٍ كُلُّ عَضْبٍ .. إِذَا فَرَعُوا وَسَابِغَةَ دِلَاصٍ ¹³⁰

وما الجارات عند المَحَلِّ فيهم .. ولو كَثُرَ الرِّوَاذُ بِالْخِمَاصِ ¹³¹ ¹³²

¹²⁸ طريفي، ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، ج2، ص83.

¹²⁹ عطوان، الشعراء الصعاليك في صدر الإسلام والعصر الأموي، ص141.

¹³⁰ العضب: السيف القاطع، السابغة الدلاص: الدرع الصافية اللينة.

¹³¹ الرواذ: جمع رازحة؛ وهي الناقة الهزيلة، الخماص: الجياح.

¹³² الأصفهاني، الأغاني، ج21، ص 176 - 177.

6. 1. 2. الظواهر الفنية في شعر الصعاليك في العصر الأموي:

اختلف شعر الصعاليك في جملته عن نظام القصيدة العربية المعروفة، وذلك بسبب اختلاف العصور والظروف لكل شاعر، إلا أن حياة الصعاليك في العصر الأموي لم تختلف كثيراً عن العصر الجاهلي، حتى باتت موضوعاتهم الشعرية متقاربة، وكان من المحقق أن يأخذ شعرهم نمط شعر صعاليك الجاهلية، ذلك لأن حياتهم قامت على المطاردة والتشرد، فلم تنهياً لهم الفرص الكافية لتتقح أشعارهم ومراجعتها كما كان عند سابقهم، فتشابهت في بعض الظواهر واختلفت قليلاً عنها.

• شعر المقطوعات:

طغت على أشعارهم المقطوعات، لأنهم كانوا غير مستقرين في حياتهم، فكانت حياتهم قائمة على التشرد والترحال، فلم يجدوا الوقت لضبط وتهذيب أشعارهم، وابتعد شعرهم عن المألوف في أشعار العرب، فكانوا ينشدون أشعارهم وسط الصحراء والوديان وفوق أعالي الجبال، وأما القصائد الشعرية فقيلت بحكم الموضوع الذي صيغت له، ولكنها تبقى نادرة وقليلة، وجدت عند طائفة صغيرة منهم.

وكما يقول الدكتور حسين عطوان: "من المحقق أن تتخذ أشعارهم شكل المقطوعات وأن تقل فيها المطولات، فإن حياتهم وما قامت عليه من التشرد والمطاردة لم تهئ لهم الفرصة كي يعنوا بمد أطناها وتنقيحها ويجعلوها متساوية في الجودة، لأنهم لم يكونوا متفرغين لنظمها وإحكام صنعتها، بل كانوا مشغولين بأنفسهم وتوفير بُلغ العيش، التي يقيمون بها آواده ويكسبون أرماقهم".¹³³

فصبوا أشعارهم في مقطوعات، وذلك لأنهم لم يصوغوا في الموضوعات التقليدية من مدح وهجاء، فصاغوا في موضوعات جديدة تتصل بحياتهم وتعبر عن غاياتهم، وأيضا لم ينشدوا أشعارهم في المحافل والمجالس أمام الخلفاء والوزراء، إنما أنشدوا أشعارهم بعيداً عن هذه الأجواء المصطنعة، فكانوا يريدون تصوير أحاسيسهم وإدراك مشاعرهم، فنظموا مقطوعاتهم لأهداف وغايات، إما للسجن أو الحنين، أو مصاحبة حيوان الصحراء، فأفرغوا سائر موضوعاتهم اللازمة في مقطوعاتهم.¹³⁴

¹³³ عطوان، الشعراء الصعاليك في صدر الإسلام والعصر الأموي، ص 163 - 164.

¹³⁴ عطوان، الشعراء الصعاليك في صدر الإسلام والعصر الأموي، ص 163 - 164.

ونجد عند جحدر بن معاوية العكلي الذي كان فتاكاً شجاعاً ولساناً، مقطوعة يصف بها السجون، حين سجن في سجن الحجاج بالكوفة، يقول:

" يا رَبِّ أَبْغُضْ بَيْتَ عِنْدَ خَالِقِهِ .. بَيْتٌ بِكُوفَانَ مِنْهُ أُشْعِلْتُ سَقَرُ
مَثْوَى تَجَمَّعَ فِيهِ النَّاسُ كُلُّهُمْ .. شَتَّى الْأُمُورِ فَلَا وَرْدَ وَلَا صَدْرُ
دَارٌ عَلَيْهَا عَفَاءُ الدَّهْرِ مَوْحِشَةٌ .. مِنْ كُلِّ إِنْسٍ وَفِيهَا الْبُذُورُ وَالْحَصَرُ " ¹³⁵

• إهمال الموروث:

أسقط صعاليك الأموية المقدمات الطللية في مقطوعاتهم، وكذلك وصف الراحلة والناقة وتشبيهها بالثور الوحشي الذي تطارده كلاب الصيد، وإن وصفوا الصحراء فإن ذلك لا ليحافظوا على التقاليد، بل ليصوروا تشردهم و تأبدهم وبعدهم عن مساكن قبائلهم، أو ليصوروا بسالتهم وتحملهم للشدائد وصبرهم على الأهوال ¹³⁶.

ف نجد الخطيم المحرزي الذي كانت حياته مليئة بالتشرد والضياع والبؤس، يصف الصحراء التي لا أعلام فيها ولا جبال، ولا يهتدي فيها الإنسان، والتي لا ماء فيها، فيرى فيها السراب كأنه الماء لشدة حرها، فهذه الصحراء محفوفة بالمخاطر ومجدبة، ومن يرتادها فهو مهدد بالموت، فيقول:

" وَتِيهَاءَ مِكَسَالٍ إِذَا اللَّيْلُ جَنَّهَا .. تَزَمَّلَ فِيهَا الْمُدْلِجُونَ عَلَى حِزْرِ ¹³⁷
بَعِيدَةٍ عَيْنِ الْمَاءِ تَرَكُّضٌ بِالضُّحَى .. كَرَكَضِكَ بِالْخَيْلِ الْمُقَرَّبَةِ الشُّقْرِ
فَلَاةٍ يَخَافُ الرِّكْبُ أَنْ يَنْطِقُوا بِهَا .. حِذَارَ الرَّدَى فِيهَا مُهَوَّلَةٌ قَفَرُ

¹³⁵ طريفي، ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، ج1، ص157.

¹³⁶ عطوان، الشعراء الصعاليك في صدر الإسلام والعصر الأموي، ص 163.

¹³⁷ التيهاء: الأرض المضلة الواسعة، مكسال: مفعال من الكسل، أجنبها: غطاها وسترها، الزمل: العدو السريع، المدلجون: جمع مدلج؛ وهو السائر ليلاً.

سَرِيعَ بِهَا قَوْلُ الضَّعِيفِ أَلَا اسْقِنِي .. إِذَا حَبَّ رَقْرَاقُ الضُّحَى حَبَبَ الْمُهِرِ¹³⁸ 139

• تماسك المقطوعات:

اتصفت مقطوعاتهم الشعرية أنها متماسكة ومتلاحمة، وتتميز بالوحدة الموضوعية، فجاءت تشبه الخواطر المعبرة¹⁴⁰.

وكما يقول الدكتور حسين عطوان: " كانت مقطوعاتهم متماسكة متلاحمة، تتمثل فيها الوحدة الموضوعية بأجلى صورها وأوضح مظاهرها، فلا تفرغ قي المعاني ولا تعدد في الأجزاء، ولا أدوات للربط بينها، كما هو الشأن عند الشعراء التقليديين، وإنما هي خواطر معانٍ محددة كانوا يعبرون عنها في أبيات محددة"¹⁴¹.

• سهولة العبارة والكلمة، وبعدهم عن غريب القول¹⁴²:

تميزت تراكيب أشعارهم بالسهولة، والأساليب الواضحة غير الغريبة، والأبنية الواضحة، على عكس أشعار الصعاليك الجاهليين التي كانت تتميز أشعارهم بالصعوبة في اللفظ والتراكيب، حتى كانت أشبه بالألغاز.

وفي هذا الصدد يقول الدكتور حسين عطوان: " ولا يدل ذلك على أن أشعارهم كلها تخلو خلواً تاماً من أي لفظ غامض، أو معنى يحتاج إلى الاستخراج، وإنما يدل على أنها في معظمها مألوفة المباني معروفة المعاني "¹⁴³.

¹³⁸ خب: هاج واضطرب، رقرق الضحى: سرابه، والرقراق: السراب، والخبب: ضرب من العدو فيه خفة.

¹³⁹ طريفي، ديوان اللصوص في العصر الجاهلي والإسلامي، ج1، ص 242.

¹⁴⁰ مروة، الصعاليك في العصر الأموي، ص 136 - 137.

¹⁴¹ عطوان، الشعراء الصعاليك في صدر الإسلام والعصر الأموي، ص 176.

¹⁴² مروة، الصعاليك في العصر الأموي، ص 136.

¹⁴³ عطوان، الشعراء الصعاليك في صدر الإسلام والعصر الأموي، ص 167 - 168.

• كثرة أسماء الأماكن والمنازل:

كثرة في أشعارهم أسماء الأماكن، والمنازل البدوية الصحراوية، التي جمعها ياقوت الحموي في معجم البلدان من أبياتهم ومقطوعاتهم، واعتمد على أسماء المواضع والبقاع وتحديد مواقعها¹⁴⁴.

فإذا نظرنا إلى ديوان القتال الكلابي نجد أنه ذكر أسماء أماكن ومواضع بكثرة في أشعاره، ومن ذلك قوله:

"عَفَا النَّجْبُ بَعْدِي فَالْعَرِيشَانِ فَالْبُتْرُ .. فَبَرَقُ نِعَاجٍ مِنْ أُمَيْمَةَ فَالْحَجَرُ

إِلَى ضَفَرَاتِ الْمِلْحِ لَيْسَ بِجَوْهَا .. أَنْيْسُ وَلَا مِمَّنْ يَحُلُّ بِهَا شُفْرُ

وَمَا أَنْسَ مِنْ الْأَشْيَاءِ لَا أَنْسَ نِسْوَةً .. طَوَالِعَ مِنْ حَوْضَى وَقَدْ جَنَحَ الْعَصْرُ

وَلَا مَوْقِفِي بِالْعَرَجِ حَتَّى أَجْنَهَا .. عَلَيَّ مِنَ الْعَرَجَيْنِ أَسْتِرَّةَ حُمُرُ

طَوَالِعَ مِنْ حَوْضَى الرِّدَاهِ كَأَنَّهَا .. نَوَاعِمُ مِنْ مَرَّانٍ أَوْقَرَهَا الْبُسْرُ

بِشَرْقِي حَوْضَى أَخَرْتَنِي مَنَازِلَ .. قِفَارٌ جَلَا لِي عَنْ مَعَارِفِهَا الْقَطْرُ

تُنِيرُ وَتُسَدِّي الرِّيحُ فِي عَرَصَاتِهَا .. كَمَا نَمْنَمَ الْقِرطَاسُ بِالْقَلَمِ الْحَبْرُ

وَحَيِّطُ نَعَامِي الرُّبْدِ فِيهَا كَأَنَّهَا .. أَبَاعِرُ ضُلَّالٍ بِأَبَاطِهَا نَشْرُ"

فقد ذكر النَّجْبُ وهي موضع لديار بني كلاب، والبتَر وهي من بلاد بني عمرو بن كلاب، والحجر وهي من نواحي المدينة بها آبار وعيون لبني سليم، وحوضى هي ماء لبني طهمان بن عمرو بن بني كلب، والعرج وهو وادٍ من ناحية الطائف، وعقبة يقع بين المدينة ومكة وبلد باليمن، ومران وهي قرية كثيرة الآبار والنخيل والمزارع وتقع على طريق البصرة وهي لبني هلال¹⁴⁵.

¹⁴⁴ عطوان، الشعراء الصعاليك في صدر الإسلام والعصر الأموي، ص 168.

¹⁴⁵ الكلابي، ديوان القتال الكلابي، ص 49.

الفصل الثالث

مقارنة بين شعر صعاليك العصر الجاهلي والعصر الأموي

إن حياة عدم الاستقرار والحروب والفتك واللصوصية، وحياة السرعة وعدم الاستقرار والخوف والعيش بين الوحوش والفرار والتنقل، كان لها الأثر الكبير لاعتماد الصعاليك منذ نشأتهم على نمط شعري مميز يختلف عن نمط القصيدة العربية، وخلص الباحثون في أدب الصعاليك إلى أن شعرهم قد تميز بعدة ظواهر من حيث البنية والمحتوى الشعري.

وفي هذا الفصل سنقارن بين شعر صعاليك العصر الجاهلي وصعاليك العصر الأموي من حيث البنية والمحتوى، وذلك من خلال المقارنة من حيث البنية وما حوته من المقطوعات الشعرية، والوحدة الموضوعية، واللغة والألفاظ، والنزعة القصصية، والبنية الموسيقية، ثم من خلال المقارنة من حيث المحتوى وما يحوي من الحديث عن الفقر، والتشرد والتأبد، والهجاء والتهديد، ومصاحبة حيوان الصحراء، ثم سنتحدث عن الموضوعات التي أهملها صعاليك العصر الأموي، وكذلك سنتحدث عن الموضوعات الشعرية المستحدثة في العصر الأموي.

1. 3. من حيث البنية:

تميز شعر الصعاليك في العصر الجاهلي بعدة ظواهر فنية ميزته عن الشعر الجاهلي الذي كان ملتزماً بشكل فني لقصائده، وذلك يرجع إلى ظروف حياتهم الغير مستقرة والتي تعتمد على الفرار والانتقال من مكان إلى آخر، ومن أهم هذه الظواهر التي تميز بها شعر الصعاليك أنه شعر مقطوعات، غير أنه تميز بالوحدة الموضوعية، وتميز باللغة واستخدام الألفاظ الغريبة، كما تميز بوجود روح النزعة القصصية، وسنقارن هنا بين صعاليك الجاهلية والأموية من حيث الظواهر الفنية المذكورة.

1. 1. 3. المقطوعات الشعرية:

حين ننظر في شعر صعاليك الجاهلية نجد أنه شعر مقطوعات، فقد شاعت المقطوعات بين أشعارهم أكثر من القصيدة الطويلة، وهذا لا يعني عدم وجود قصائد طوال، فقد وجدت قصائد لبعض الصعاليك منها ثائية ولامية الشنفرى، ورائية عروة بن الورد، وفائية صخر الغي الهذلي، ولامية عمرو ذي الكلب الهذلي، وميمية أبي خراش، لكن حياة الحرب والفتك والإغارة والعيش بين الوحوش و التنقل والفرار التي كان يعيشها الصعاليك كانت سبباً في قولهم المقطوعات، فحياة هؤلاء الصعاليك القلقة والغير مستقرة أدت إلى قولهم المقطوعات، فلم يكن يفرغ الصعلوك للتطويل والتجويد، فنظموا أبياتاً مفردة و مقطوعات يتراوح عدد أبياتها ما بين البيتين والسبع أبيات.

ونستج من ذلك أن سمة المقطوعات غلبت على شعر الصعاليك، ولعل ذلك يعود لطبيعة الحياة التي كانت قائمة على التشرذم وعدم الاستقرار، وكذلك الحياة السريعة القلقة التي لم تتح لهم الفرصة لتطويل القصائد وتنقيحها وتجويدها.

وسنذكر بعض المقطوعات الشعرية من قصائد الصعاليك الجاهليين، فيقول تأبط شراً واصفاً دخوله على غول من الغيلان:

" إِذَا وَجَرَ عَظِيمٍ فِيهِ شَيْخٌ .. مِنْ السُّودَانِ يُدْعَى الشَّرَّتَيْنِ

وَأَدْخُلْ وَجَرَهُ أَمْشِي بِكَفِّي .. حُسَامُ الْحَدِّ مَاضِي الشَّفَرَتَيْنِ

تُقَلِّبُ فَاتِرًا خَدِرًا كَلِيلًا .. فَلَمْ أَرْ مِثْلَ تِلْكَ الْحَرَّتَيْنِ¹⁴⁶

فَلَمْ أَرْ مَحْبُوءًا أَتَاهَا .. وَلَمْ أَرْ مِثْلَ فِيهَا مَلْتَمَيْنِ¹⁴⁷ "148

ويقول عروة بن الورد في حديثه عن المال وأن العيش على موائد الناس موت:

" إِذَا آذَاكَ مَالُكَ، فَاْمْتَنِهِ .. لِجَادِيهِ، وَإِنْ قَرَعَ الْمَرَا ح

¹⁴⁶ الفاتر: لسانها ويقصد الغول، الحرثان: أذنهما.

¹⁴⁷ محبو: أي زحف على يديه وركبتيه، أتاها: طريقها، وقوله " لم أر مثل فيها ملتمين" أي لم أر فماً قبيحاً بشعاً كفمها.

¹⁴⁸ تأبط شراً، ديوان تأبط شراً، ص 228 - 229.

وإن أخنى عليك، فلم تجده .. فنبت الأرض والماء القراح

فرغم العيش إلف فناء قوم .. وإن آسوك، والموت الرواح " 149

أما عند صعاليك العصر الأموي فقد كثر نظم المقطوعات كما كان عند سابقهم من العصر الجاهلي، فقد كانت حياة التشرد والفرار في العصر الأموي كما كانت في العصر الجاهلي، لذلك لم يكن لديهم وقت لنظم القصائد الطويلة وتنقيحها، فعندما نقرأ مثلاً ديوان القتال الكلابي نجد أن ديوانه يتكون من مقطوعات وأبيات معدودة لأن حياته كانت قائمة على المطاردة والفرار، ففي إحدى المقطوعات كان يصف كيف يسير بين الأودية، ويسلك مسلكاً ضيقاً، فإذا بأسد مفترش ذراعيه على الطريق، ولم يعلم حتى هجم عليه، فخشي أن يرجع فيبادره، فلم يجد مقدماً إلا بقتله، فحمل سيفه على الأسد وقتله، فقال:

" أَتَتَكَ الْمَنَايَا مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ .. بِمُنْخَرِقِ السَّرْبَالِ عَيْلِ الْمَنَاكِبِ 150

أخي العُرفِ والأنكارِ يعلوك وقعةً .. بأبيض سقَّاطٍ وراءَ الصُّرَائِبِ " 151

وعندما نظرنا أيضاً إلى ديوان طهمان بن عمرو الكلابي برواية أبي سعيد السكري وجدنا أن الديوان يتألف من المقطوعات أكثر من القصائد، فتألف ديوانه من تسع مقطوعات وخمسة قصائد، ومما قاله في دوانه يرثي أحد أصحابه الذين كان يغير بهم للسرقة فيقول:

"يا طول خوفك من غبراء مظلمة .. قدت 152 على أطول الغادين ممدودا

قاموا إليها يمشاة مشاطنة .. ومعول شقها صباً وتلحيداً 153

فاستودعوها غلاماً لم يكن برماً .. عند الشتاء ولا في الروع رعيداً

149 ابن السكيت، شرح ديوان عروة بن الورد، ص 42.

150 منخرق السربال: يقال للرجل الممزق الثياب، وهو يعني نفسه على سبيل الفخر، لأن تخرق السربال كناية عن المضاء في الأسفار والحروب، عيل المناكب: غليظها.

151 الكلابي، ديوان القتال الكلابي، ص 38.

152 قدت: شقت وحفرت.

153 المشاة: بمنزلة الزبيل الذي يجعل فيه التراب، يتخذ من كساء أو غيره من الثياب، المشاطنة: التي تمتد بحبلين من الحفرة، صبا: أي حفرها سفلًا ولحدها.

أيها لن تطلب الأظعان مصعدة .. ولن ترى ذا المغلاق مردوداً¹⁵⁴ " 155

وخلاصة الأمر أن شعر الصعاليك تميز بظاهرة المقطوعات منذ العصر الجاهلي وامتدت هذه الظاهرة إلى العصر الأموي، فوافق صعاليك الأموية صعاليك الجاهلية في استخدام شعر المقطوعات، وقد يكون سبب ذلك هو افتقارهم لحياة الاستقرار والطمأنينة وتشردهم في الصحراء، وبعدهم عن حياة الترف واللهو، وانشغالهم بالغزو والسلب والنهب.

الموضوع	العصر الجاهلي	العصر الأموي
المقطوعات الشعرية.	تتميز أشعارهم بأنها شعر مقطوعات.	وافقت أشعارهم أشعار سابقهم بأنها مقطوعات.

2. 1. 3. الوحدة الموضوعية:

إن القارئ لشعر الصعاليك يجد أنهم اتخذوا لأنفسهم طابع مغاير عن الطابع التقليدي للقصيدة العربية القائمة على تعدد الموضوعات، وهو ما غاب في أشعار صعاليك كلا العصرين الجاهلي والأموي، فاعتمدوا على طابع الوضوح والوحدة الموضوعية.

فكان لشعر الصعاليك في العصر الجاهلي طابعه الخاص، فلم يلتزم الصعاليك بنهج القصيدة العربية القديمة إنما كان لهم نهج محدد في قصائدهم ومقطوعاتهم، فلم يلتزم الصعلوك ببدا قصيدته أو مقطوعته بالغزل أو الوقوف على الأطلال كما كان موجود في قصائد الجاهلية، أو اشتغال القصيدة على عدة موضوعات، إنما تميزت أشعارهم بالوحدة الموضوعية والالتزام بغرض واحد في القصيدة أو المقطوعة.

¹⁵⁴ ذا المغلاق: أي يغلق على من خاصمه حخته فلا يقدر عليها، مردوداً: عما يقول ويبيد.

¹⁵⁵ طهمان الكلابي، ديوان طهمان بن عمرو الكلابي بشرح أبي سعيد السكري، تج: محمد المعبيد بغداد، مطبعة

الإرشاد، 1968، ص38.

فيقول يوسف خليف: " فالناظر في شعر الصعاليك تلفت نظره تلك الوحدة الموضوعية في مقطوعاته وأكثر قصائده، بحيث يستطيع أن يضع لكل مقطوعة عنواناً خاصاً بها، دالاً على موضوعها، وهي ظاهرة لم تعرفها قصائد الشعر الجاهلي القبلي في مجموعته، تلك القصائد التي تبدأ عادة بمقدمة طلبية، ثم تظل تنتقل من موضوع إلى موضوع حتى تصل إلى نهايتها، حتى لتصبح براعة الانتقال من المقاييس الفنية المعترف بها عند نقاد الشعر العربي القدماء".¹⁵⁶

ففي شعر صعاليك الجاهلية نرى مثلاً تأبط شراً في مقطوعة له يخبر بخير يوم مر عليه، وهو يوم نزل على رجل من بني بجيلة ثم اغتره فقتله وساق امرأة الرجل وإبله حتى صَعَدَ بني عوف بن فهم وهي من قومه، فوصف ذلك اليوم وقال:

" بِحَلِيلَةِ الْبَجَلِيِّ بَتٍ مِنْ لَيْلِهَا .. بَيْنَ الْإِزَارِ وَكَشْحِهَا ثُمَّ الصَّقِ
بِأَنْبَسَةٍ طُوِيَتْ عَلَى مَطْوِيَّهَا .. طَيَّ الْجِمَالَةِ أَوْ كَطَيِّ الْمَنْطِقِ
فَإِذَا تَقَوْمُ فَصَعَدَ فِي رَمَلَةٍ .. لَبِدَتْ بِرَيْقٍ دِيمَةٍ لَمْ تُغْدِقِ
وَإِذَا تَجِيءُ تَجِيءُ تَسْحَبُ خِلَتَهَا .. كَالْأَيْمِ أَصْعَدَ فِي كَثِيبٍ يَرْتَقِي
كَذَبَ الْكَوَاهِنُ وَالسَّوَاجِرُ وَالْهَنَا .. أَنْ لَا وَفَاءَ لِعَاجِزٍ لَا يَنْقِي "

157

ومع وجود أغراض متعددة في قصائدهم إلا أنها ترجع إلى أصل موضوعي واحد وتتفرع منه، فالتعدد في مقطوعاتهم ليس تعدد في الموضوع، إنما هو تفرع في أغراض الموضوع، وعلى شاكلة ما كان يفعل صعاليك الجاهلية بنى صعاليك الأموية مقطوعاتهم التي كانت تتميز بالوحدة الموضوعية والتلاحم والتماسك، وكأنها خواطر يعبرون عنها في أبيات معدودة.¹⁵⁸

ومثال ذلك ما نراه في ديوان مالك بن الريب في حديثه عن قتل رجل أسود كان يقطع الطريق، ففي إحدى الليالي في بعض هناته وهو نائم، وكان لا ينام إلا وهو متوشحاً سيفه، وإذا بشيء قد جثم عليه،

¹⁵⁶ خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 264.

¹⁵⁷ تأبط شراً، ديوان تأبط شراً، ص 145-147.

¹⁵⁸ عطوان، الشعراء الصعاليك في صدر الإسلام والعصر الأموي، ص 167.

فانتقض مالك فسقط عنه، ثم حمل عليه السيف فقتله، ثم نظر مالك إليه فإذا هو رجل أسود كان يقطع الطريق، فقال مالك:

" أَدَلَجْتُ فِي مَهْمَةٍ مَا إِنْ أَرَى أَحَدًا .. حَتَّى إِذَا حَانَ تَعْرِيسُ لِمَنْ نَزَلَا
وَضَعْتُ جَنْبِي وَقُلْتُ اللَّهُ يَكْلُونِي .. مَهْمَا تَنَمَّ عَنْكَ مِنْ عَيْنٍ فَمَا غَفَلَا
وَالسَّيْفُ بَيْنِي وَبَيْنَ النَّوْبِ مَشْعُرُهُ¹⁵⁹ .. أَخْشَى الْحَوَادِثَ إِنِّي لَمْ أَكُنْ وَكَلا
مَا نِمْتُ إِلَّا قَلِيلًا نِمْتُهُ شَنْزًا¹⁶⁰ .. حَتَّى وَجَدْتُ عَلَى جُثْمَانِي الثَّقَلَا
دَاهِيَةً مِنْ دَوَاهِي اللَّيْلِ بَيَّتَنِي .. مُجَاهِدًا يَبْتَغِي نَفْسِي وَمَاخْتَلَا
أَهْوَيْتُ نَفْحًا لَهُ وَاللَّيْلُ سَاتِرُهُ .. إِلَّا تَوَخَّيْتُهُ وَالْجَرَسُ فَإِنْخَزَلَا¹⁶¹
لَمَّا ثَنَى اللَّهُ عَنِّي شَرَّ عَدَوْتِهِ .. رَقَدْتُ لَا مُثَبِّتًا دُعْرًا وَلَا بَعِلَا¹⁶²
أَوْقَدْتُ نَارِي وَمَا أُدْرِي إِذَا لَبِدٍ .. يَغْشَى الْمُهْجَهَجَ عَضُّ السَّيْفِ أَوْ رَجُلَا¹⁶³
أَمَا تَرَى الدَّارَ قَفْرًا لَا أَنْيَسَ بِهَا .. إِلَّا الْوُحُوشَ وَأَمْسَى أَهْلُهَا احْتَمَلَا
بَيْنَ الْمُنِيفَةِ حَيْثُ اسْتَنْنَ مَدْفَعُهَا .. وَبَيْنَ فَرْدَةٍ مِنْ وَحْشِيهَا قُبُلَا¹⁶⁴
وَقَدْ تَقُولُ وَمَا تَخْفِي لَجَارَتِهَا .. إِنِّي أَرَى مَالِكَ بِنَ الرِّيبِ قَدْ نَحَلَا
مَنْ يَشْهَدُ الْحَرْبَ يَصِلَاهَا وَيَسْعُرُهَا .. تَرَاهُ مِمَّا كَسَتْهُ شَاخِبًا وَجَلَا
خُذْهَا فَإِنَّ لَضْرَابٍ إِذَا اخْتَلَفْتَ .. أَيْدِي الرِّجَالِ بِضَرْبٍ يَخْتَلُ الْبَطَلَا¹⁶⁵ " 166

159 مشعره: جاعله شعاري.

160 شَنْزًا: قلقًا.

161 نفحًا: ضربًا، انخزل: انقطع.

162 البعل: البرم الذي لم يدر كيف يصنع، وقيل: الدهش عند الورع.

163 المهجهج: يقال هجهج السبع وهجهج به؛ صاح وزجره ليكيف، وقيل الهجهجة: حكاية صوت الرجل إذا صاح بالأسد.

164 المنيفة: ماء لتميم على فلج بين نجد واليمامة، استنن: وضح، مدفعها: مسيلها ومجراها، فردة: جبل في ديار طيء، قبلاً: عياناً.

165 يختل البطلا: ينزع أعلى البيضة.

166 الريب، ديوان مالك بن الريب، ص 81 - 82.

وكذلك عند قراءة ديوان القتال الكلابي سنجد أن أغلب أشعاره تتحدث عن موضوع موحد وهو أنواع الصراع في البداية، فمن قصائده ما كان صورة للنزعة القبلية، والصراع بينه وبين قبيلته التي تخلت عنه لكثرة جرائمه حتى يتمنى أحياناً أن لم يكن منتسباً إليها، فيقول:

" يا لَيْتِي والمُنَى لَيْسَتْ بِنَافِعَةٍ .. لِمَالِكٍ أَوْ لِحَصْنٍ أَوْ لِسَيَّارٍ

طَوَالَ أَنْضِيَةِ الْأَعْنَاقِ لَمْ يَجُؤُوا .. رِيحَ الْإِمَاءِ إِذَا رَاحَتْ بِأَرْفَارٍ " ¹⁶⁷

فقد عبرت أشعارهم عن موضوع شعري كان انعكاس لموقف كل صعلوك بما مر به في حياته، واعتمدت أسلوب الحكاية لحادثة معينة يعبر بها الشاعر ما في داخله عن الموقف الذي مر به، ومن ثم تنطلق مقطوعاتهم على أساس بنية موضوعية واحدة.

الموضوع	العصر الجاهلي	العصر الأموي
الوحدة الموضوعية.	تميز بالوحدة الموضوعية.	كذلك تميز بالوحدة الموضوعية.

3. 1. 3. اللغة والألفاظ:

إن الشعراء الصعاليك جزء من شعراء العصر الجاهلي، إلا أن الصعاليك خرجوا من طاعة قبيلتهم والتجأوا إلى قبيلة أخرى، وكانوا يعيشون في الصحراء بين وديانها وشعابها يعيشون بقطع الطرق والإغارة على القوافل، ومع ذلك لا يمكن أن يكونوا قد ابتدعوا لغة خاصة بهم، إنما هي لغة تخاطبهم اليومي التي كانت في العصر الجاهلي.

ولكن على الرغم من ذلك فقد جعل الصعاليك لغة شعرهم تكتسب بعضاً من لغة وألفاظ الصعلكة، فجعلوها تتناسب مع حياتهم، وتتماثل مع لغة الحرب والفتك والفقر والتشرد، وكذلك عند صعاليك العصر الأموي غير أننا وجدنا اختلافاً بسبب طول الفترة بين العصرين الجاهلي والأموي، وكان أيضاً للدين الإسلامي وألفاظ الإسلام تأثيراً عند بعض صعاليك العصر الأموي، فانعكس ذلك في أشعارهم.

¹⁶⁷ الكلابي، ديوان القتال الكلابي، ص 55.

ومما نجده في لغة الشعراء الجاهليين كثرة الألفاظ الوحشية والغريبة المستقاة من البيئة البدوية القاسية، التي تتسم بحدتها وخشونتها حتى يصعب علينا في الوقت الحاضر قراءتها وفهمها، فإن لغة الصعاليك هي لغة الشعر الجاهلي التي كانوا يتخاطبون بها، وعلى الرغم من ذلك فإن الشعراء الصعاليك أضافوا بعض خصائص الصعلكة على أشعارهم، وتميزوا في اللغة التي كانت تتناسب مع حياة الفتك والتشرد والفرار، فانعكست الحياة القاسية التي عاشها الصعاليك على الألفاظ المستخدمة في أشعارهم.

وبذلك تميزت أشعارهم بالخشونة والصعوبة والغربة، فكانت هذه اللغة تحمل ألفاظاً مستوحاة من أعماق الفياقي الموحشة، فكانت هذه الألفاظ غريبة عند بعض الشعراء ومألوفة بين الصعاليك والفتاك، وكما يقول الدكتور يوسف خليف: " كثرة الغريب في شعرهم، حتى يشعر الناظر فيه أحياناً أنه أمام مجموعة من الطلاسم اللفظية، يضطر أمام كل لفظ منها إلى الرجوع إلى المعاجم المطولة؛ لأن المعاجم المختصرة لا تسعفه".

وأكثر ما وجد الغريب في ديوان تأبط شر¹⁶⁸، فيقول:

" مَنْ الْحَصِّ هُزْرُوفٌ يَطِيرُ عَفَاؤُهُ .. إِذَا اسْتَدْرَجَ الْفَيْفَا وَمَدَّ الْمَغَابِنَا¹⁶⁹

أَنْجُ زُلُوجٍ هَزْرَفِي زُفَازَفٍ .. هَزَفٌ يَبْذُ النَّاجِيَّاتِ الصَّوْفَانَا¹⁷⁰

فَرَحَزَحْتُ عَنْهُمْ، أَوْ تَجَنَّبِي مَنِيَّتِي .. بَعْبَرَاءُ أَوْ عَرَفَاءُ تَغْدُو الدَّفَائِنَا¹⁷¹ 172

¹⁶⁸ خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، 316

¹⁶⁹ الحص: جمع أخص وهو المنجرد الشعر وهو أخف له في العدو وأسرع، الهزروف: السريع الخفيف ويكون بمعنى العظيم الخلق، عفاء النعام: ريشه؛ ويطير عفاؤه من شدة عدوه، استدراج: ألقى التراب وأثارة حتى يدرج على الأرض، الفيفا: الصحراء، المغابن: باطن الفخذ.

¹⁷⁰ الأزج: طويل الساقين بعيد الخطو، الزلوج: الذي يمضي مسرعاً فيبدو وكأنه لا يحرك ساقيه وإنما يتزلج بهما، الهزرفي: الشديد الحركة كثيرها، زفازف: مترامياً بنفسه باسطاً جناحيه، الهزف: الجافي القوي، يبذ: يسبق ويفوق، الناجيات الصوفان: الخيل السريعة القائمة.

¹⁷¹ فرحزحت عنهم: أي فهربت منهم وابتعدت عنهم، الغبراء: قد تكون أنثى الذئب، العرفاء: الضبع، تغدو الدفائن: تتبع الموتى في قبورهم لتأكلهم.

¹⁷² تأبط شرأ، ديوان تأبط شرأ، ص 216 - 217.

ومما قاله الشنفرى أيضاً في ديوانه:

"وَنَعْلٍ كَأَشْلَاءِ السَّمَائِ تَرَكَتْهَا .. عَلَى جَنْبِ مَوْرٍ كَالنَّحِيزَةِ أَغْبَرًا¹⁷³

فَإِنْ لَا تَزُرْنِي حَتَّقْتِي أَوْ تُلَاقِنِي .. أُمَشٍ بِدَهْرٍ أَوْ عِدَافٍ فَنَوَّرًا¹⁷⁴

أُمَشِي بِأَطْرَافِ الْحَمَاطِ وَتَارَةً .. يَنْقُضُ رِجْلِي بُسْبُطًا فَعَصَنْصَرًا¹⁷⁵ » 176

وكذلك عندما نقرأ ديوان عمرو بن براقة نجد في أشعاره الألفاظ الغربية التي تجعلنا نضطر إلى الرجوع إلى المعاجم المطولة لفهم معانيها، إلا أن أشعاره أقل إغراباً مما نجده في أبيات تأبط شراً والشنفرى.

ومثال لألفاظ عمرو بن براقة الغربية في وصف فرسه:

"وَرَبَّ طَمُوحٍ فِي الْعِنَانِ تَرَكَتْهَا .. بِسَائِلَةِ الْحَصَاصِ مُلْقَى لَجَامُهَا¹⁷⁷

وَعَادِيَةِ سَوَمِ الْجَرَادِ وَزَعَتْهَا .. بِطَعْنٍ كَسَاها مِنْهُ رَدْعًا كِلَامُهَا¹⁷⁸

دَنَوْتُ لَهَا تَحْتَ الْعَجَاجِ فَأَدْبَرَتْ .. شَوَاكُلَهَا الْيَسْرَى كَثِيرًا سُهَامُهَا¹⁷⁹ » 180

وأشار أيضاً الدكتور يوسف خليف في حديثه عن شعر عروة بن الورد وما يميزه عن شعر أصحابه فنجد أنه يقول: "ولعل عروة بن الورد أقل الشعراء الصعاليك إغراباً من الناحية اللغوية. ولعل سبب هذا أن عروة كان يقوم في حركة الصعلكة بدور الزعيم الشعبي، أو صاحب المذهب الذي يدعو الجماهير إلى اعتناق مذهبه، فكان طبيعياً أن يتبسط في الحديث إلى جماهيره باللغة التي يألّفونها، هذا من ناحية، ومن

¹⁷³ الأشلاء: جمع شلّو وهو العضو والقطعة من اللحم، السمانى: نوع من الطيور التي ترحل من مكان إلى آخر، المور: الطريق الموطوء المستوي، النحيزة: القطعة الخشنة من الأرض، الأغبر: ما كان لونه الغبرة؛ وهي لون الغبار.

¹⁷⁴ حتقتي: موتي، ودهر وعداف ونوّار: أماكن في ديار بني سلامان.

¹⁷⁵ الحماط: ضرب من النبات، سبط وعصنصر: جبلان في ديار سلامان بن مفرج.

¹⁷⁶ الشنفرى، ديوان الشنفرى، ص 46.

¹⁷⁷ الطمّوح: سريع الوثب، الحصاص: اسم جبل.

¹⁷⁸ وزعتها: أوقفت تقدمها، الردع: اللطخ بالدم، كلامها: جمع كلم وهو الجرح.

¹⁷⁹ الشواكل: خواصر الفرس، السُّهام: الضُّمُر والتغير.

¹⁸⁰ ابن براقة، ديوان عمرو بن براقة، ص 122 - 123.

ناحية أخرى لم يكن عروة بالصلعوك الذي اعتزل مجتمعه، وعاش بين حيوان الصحراء ووحشها، كما كان يفعل غيره من الصعاليك، وإنما كان إنساناً بكل ما في الإنسانية من معانٍ، يحرص على الاتصال بمجتمعه الإنساني والعمل من أجله، ومن هنا خلصت لغته من تلك الحوشية البدوية التي نلاحظها عند غيره من شعراء الصعاليك، وبخاصة تأبط شراً والشنفرى¹⁸¹.

ومما نجده في ديوان عروة بن الورد حديثه عن نفسه، يقول:

"بَنِيْتُ عَلَى خَلْقِ الرِّجَالِ بِأَعْظَمٍ .. خِفَافٍ، تَنْتَنِي تَحْتَهُنَ الْمَفَاصِلُ

وَقَلْبٍ جَلَا عَنْهُ الشُّكُوكُ فَإِنْ تَشَأْ .. يَخْبِرُكَ ظَهَرُ الْغَيْبِ مَا أَنْتَ فَاعِلٌ"¹⁸²

وأيضاً خلا شعر الصعاليك من وجود الصنعة اللفظية فكانت عباراتهم واقعية صادقة تعبر عن الحياة القاسية والانتقال والفوضى والفرار، لأن حياتهم كانت في خطر دائم لذلك نجد أنهم ابتعدوا عن الزخارف الفنية فكانت أشعارهم تخرج ارتجالاً بفطرتهم.

أما اللغة والألفاظ عند صعاليك العصر الأموي اتصفت بسهولة العبارة والبعد عن الغريب والألف في الألفاظ، ويقول الدكتور حسين عطوان: "تتصف أشعار الصعاليك الأمويين بصفة أخرى جديدة، وهي أن تراكيبها ليست صعبة، وأساليبها ليست غريبة، فكلماتها سهلة، وأبنيثها واضحة، ودلالاتها بينة على عكس أشعار أسلافهم من الصعاليك الجاهليين، فإن بعض ألفاظهم وأبياتهم كانت أشبه بالألغاز، وهي ألغاز كانت تستغل على علماء اللغة أنفسهم، وتستعصي عليهم، حتى لقد كانوا يقفون حائرين أمامها ويختلفون أشد الاختلاف في معانيها"¹⁸³.

لكننا نجد عند بعض صعاليك الأموية استخدام الألفاظ الغريبة وذلك لبدائيتهم وكثرة تنقلاتهم في مناطق البدو، مثل القتال الكلابي والمرار الفقعي.

¹⁸¹ خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص316.

¹⁸² ابن السكيت، شرح ديوان عروة بن الورد، ص132.

¹⁸³ عطوان، الشعراء الصعاليك في صدر الإسلام والعصر الأموي، ص167.

فيذكر القتال الكلابي في شعره بعض مناطق البدو والألفاظ الغريبة فيقول:

"عَفَا لَفْلَفٌ مِنْ أَهْلِهِ فَالْمُضَيِّحُ .. فَلَيْسَ بِهِ إِلَّا الثَّعَالِبُ تَضْبَحُ¹⁸⁴

وَأَدَمٌ كَثِيرَانِ الصَّرِيمِ تَكَلَّفَتْ .. لِطَبِيَّةٍ حَتَّى زُرْنَا وَهِيَ طُلْحُ¹⁸⁵

دَفَعَنْ مِنَ السَّعْدَيْنِ حَتَّى تَقَاضَلَتْ .. خَنَازِيدُ مِنْ أَوْلَادِ أَعَوْجٍ قُرْحُ¹⁸⁶ 187

فإن هذه الغرابة في اللغة والألفاظ عند صعاليك الجاهلية كانت نتيجة حتمية لصعوبة الحياة في العصر الجاهلي نظراً لحياتهم القائمة على التمرد والتشرد، على عكس صعاليك الأموية الذين وإن كانت حياتهم قائمة على التمرد والتشرد إلا أنها كانت تختلف عن الحياة الجاهلية من حيث التحضر الذي كان في العصر الأموي.

وبذلك فقد تميز شعر صعاليك الجاهلية بصعوبة الألفاظ وغرابتها، على عكس صعاليك العصر الأموي الذي قد تميز شعرهم بسهولة الألفاظ وألفها، إلا أننا نجد شعر صعاليك العصر الجاهلي يتفاوت في المستوى اللفظي، فنجد فيه الألفاظ السهلة قريبة المعنى، كشعر عروة بن الورد، ونجد أشعار الهذليين صعبة غريبة الألفاظ، أما شعر صعاليك العصر الأموي فكان يتسم بالوضوح والسلاسة بالنسبة لشعر صعاليك الجاهلية.

وتشابه صعاليك العصر الجاهلي مع صعاليك العصر الأموي في بعدهم عن التأنيق اللفظي والتجويد والتفنن في التراكيب والكلمات نتيجة حياتهم التي كانت تتميز بالحركة والانتقال والفوضى، ولأن حياتهم كانت قائمة على الترقب المستمر، لذلك ابتعدوا عن أمور الصنعة اللفظية والزخارف الفنية.

¹⁸⁴ لفلف: جبل بين تيماء وجبلي طيء، المضيق: جبلان في بلاد هوازن، تصبح: صوت تشترك فيه الثعالب.

¹⁸⁵ الأدم: الناقة التي يغلب عليها البياض، الصريم: القطع من الرمل، طلح: هزيلة مما تكلفته من المشاق.

¹⁸⁶ السعدان: موضع لم يحدده ياقوت، الخنازيد: جياذ الخيل، أعوج: اسم فحل من خيولهم المشهورة، قرح: جمع قارح وهو من ذي الحافر بمنزلة البازل من الإبل.

¹⁸⁷ الكلابي، ديوان القتال الكلابي، ص 39.

الموضوع	العصر الجاهلي	العصر الأموي
اللغة والألفاظ.	الألفاظ الغريبة كثيرة ثم أصبحت هذه الألفاظ مألوفة وكانت أقرب إلى فطرة اللغة العربية.	تنوعت الألفاظ وابتعدت قليلاً عن فطرة اللغة العربية.
	كثر استخدام الألفاظ الغريبة وقلة استخدام الألفاظ السهلة والتراكيب كانت معقدة.	كثر استخدام الألفاظ السهلة وقلة استخدام الألفاظ الغريبة والتراكيب كانت واضحة.
	ابتعدوا عن الصنعة اللفظية.	أيضاً ابتعدوا عن الصنعة اللفظية.

4. 1. 3. النزعة القصصية:

تميز شعر الصعاليك في العصر الجاهلي بأنه صورة صادقة عن حياة الصعاليك، يعبر الصعلوك من خلال شعره عن حياة الصعلكة، وقد كان شعرهم قصصي يسجل فيه الصعلوك كل ما يدور في حياته المليئة بالحوادث، فحياة الفرار والتشرد في الفيافي بين وديانها وشعابها والغارات التي كانوا يقومون بها فرادى أو جماعات، وتربصهم فوق المراقب في انتظار ضحاياهم، كل هذا نتج عنه الفن القصصي، فقد بدت ملامح القصص عند الصعاليك واضحة معبرين بها عن فرارهم وهربهم.

وقد قال دكتور يوسف خليف: "هي ظاهرة القصصية في شعر الصعاليك في العصر السابق للإسلام، وعد الصعاليك رواد القصة الشعرية في الأدب العربي مخالفاً بذلك من رأى أن امرؤ القيس أول من اصطنع القصة في الشعر العربي" ¹⁸⁸.

فهذا الطابع القصصي جعل من شعر الصعاليك وثيقة تاريخية يمكن أن نستدل من خلالها على واقع الحياة التي عاشها الصعلوك وما يدور في حياته المليئة بالحوادث بأسلوب قصصي مشوق.

¹⁸⁸ خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 278 - 279.

ونرى ذلك في مقطوعة لتأبط شراً يحدثنا بها عن إحدى غاراته مع عدد من أصحابه الصعاليك منهم الشنفرى والمسيب وعمرو بن بركة في أسلوب قصصي، فيقول:

" جَزَى اللَّهُ فِتْيَانًا عَلَى الْعُوصِ أَمْطَرَتْ .. سَمَاؤُهُمْ تَحْتَ الْعَجَاجَةِ بِالْدَمِّ¹⁸⁹
وَقَدْ لَاحَ ضَوْؤُ الْفَجْرِ عَرْضًا كَأَنَّهُ .. بِلَمَحَتِهِ أَقْرَابُ أَبْلَقَ أَدْهَمَ¹⁹⁰
فَإِنَّ شِفَاءَ الدَّاءِ إِدْرَاكَ دَحْلَةٍ .. صَبَاحًا عَلَى آثَارِ حَوْمٍ عَرْمَرَمٍ¹⁹¹
وَضَارِبَهُمْ بِالسَّفْعِ إِذْ عَارَضَتْهُمْ .. قَبَائِلُ مِنْ أَبْنَاءِ قَسْرِ وَخُثْعَمٍ
ضِرَابًا غَدَا مِنْهُ ابْنُ حَاجِرٍ هَارِبًا .. ذُرَا الصَّخْرِ فِي حَذْرِ الرَّجِيلِ الْمَدِيمِ¹⁹² " 193

كان صعاليك العصر الجاهلي أول من بدأ القصة في الشعر العربي، وقد وصلوا إلى مستوى القصة الشعرية الكاملة، فوضعوا مبادئ القصص الشعري، وكادت أن تقرب هذه النزعة إلى القصة القصيرة بمقوماتها الفنية، ونجد هذا كثيراً في قصائد شعر الهذليين، مثل أشعار صخر الغي¹⁹⁴.

ونرى شعر صخر الغي القصصي الذي استخدم فيه الخيال في رثاء ابنه تليداً، فتخيل أنه لقي بمكان يسمى "سَبَلَل" حمامة حزينة تشبهه في حال حزنه، فكانت لا تنام كما ينام الناس لفقدائها ولدها الوحيد الذي يدعى ساق الحر، فكانت تسأله عن فرخها وكان يسألها عن ابنه، وأنهما يعيشان ببأس وتعبير ووجدان بعيد، أي وجدان عميق وشديد وأنه لا يجده أبداً، فيقول:

" وما إِنَّ صَوْتُ نَائِحَةٍ بِلَيْلٍ .. بِسَبَلَلٍ لَا تَنَامُ مَعَ الْهُجُودِ
تَجَهَّنَا غَادِبِينَ فَسَاءَ لَتْنِي .. بواحدنا وأسأل عن تليدي
فَقُلْتُ لَهَا فَأَمَّا سَاقُ حُرٍّ .. فَبَانَ مَعَ الْأَوَائِلِ مِنْ ثَمُودِ

189 العوص: بطنٌ من بجيلة، العجاجة: غيرة القتال مما يثيره المقاتلون.

190 الأقرباب: الخواصر، الأبلق: الذي في لونه بياض وسواد معاً، الأدهم: الأسود الخالص.

191 الذحل: الثأر، الحوم العرمرم: الجماعة الكثيرة.

192 الحدر: المنحدر الشديد في الأرض والجبل، الرجيل: الطريق الغليظ الوعر في الجبل، المديم: أصابته الديمة وهي المطر الشديد الغزير.

193 تأبط شراً، ديوان تأبط شراً، ص 206 - 209.

194 عبد الحليم حنفي، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص 413.

وَقَالَتْ لَنْ تَرَى أَبَدًا تَلِيدًا .. بَعَيْنِكَ آخِرَ الدَّهْرِ الْجَدِيدِ

كَلَانَا رَدَّ صَاحِبَهُ بَيَاسٍ .. وَتَأْنِيْبٍ وَوَجْدَانٍ بَعِيدٍ " 195

أما عند صعلاليك العصر الأموي فقد ظهر الاتجاه القصصي في أشعارهم كما كان عند سابقهم من صعلاليك الجاهلية، وقد برز الاتجاه القصصي عند مالك بن الرّيب، فقد ذكر مالك في أبياته أنه بينما كان نائماً في إحدى غاراته إذ بيته ذئب، فكَّه فلم يبتعد، فأعاد ذلك فلم يبتعد، فحمل سيفه وهجم عليه فضربه فقتله، وقال:

" أَذْنَبَ الْعَصَا: قَدْ صرَتْ لِلنَّاسِ ضَحَكَةً .. تُغَادِي بِكَ الرِّكْبَانُ شَرْقاً إِلَى غَرْبِ

فَأَنْتِ وَإِنْ كُنْتَ الْجَرِيءُ جَنَانُهُ .. مُنِيَّتْ بِضِرْغَامٍ مِنَ الْأَسَدِ الْغُلْبِ

بِمَنْ لَا يَنَامُ اللَّيْلَ إِلَّا وَسِيفُهُ .. رَهِينَةُ أَقْوَامٍ سِرَاعٍ إِلَى الشَّغْبِ

أَلَمْ تَرْنِي يَازْئِبُ إِذْ جُنْتُ طَارِقًا .. تُخَاثِلُنِي أَنِي أَمْرُؤُ وَافِرُ اللَّبِ

زَجَرْتُكَ مَرَاتٍ فَلَمَّا غَلَبْتَنِي .. وَلَمْ تَنْزَجِرْ نَهْنَهُتُ غَرْبَكَ بِالضَرْبِ

فَصَرْتُ لَقِيٍّ لَمَّا عَلَاكَ ابْنُ حُرَّةٍ .. بِأَبْيَضِ قَطَاعٍ يُنْجِي مِنَ الْكَرْبِ " 196

الموضوع	العصر الجاهلي	العصر الأموي
النزعة القصصية.	يتميز شعر الصعلاليك بأنه شعر قصصي، أشبه لسرد الحكاية.	تتشابه أشعار الصعلاليك في هذا العصر سابقهم من حيث الشعر القصصي، فكان أشبه لسرد الحكاية.

195 الشعراء الهذليون، ديوان الهذليين، ترتيب وتعليق: محمد الشنقيطي، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، 1965، ص 293 - 294.

196 الرّيب، ديوان مالك بن الرّيب، ص71.

5. 1. 3. البنية الموسيقية:

استخدم صعاليك الجاهلية في شعرهم الأوزان التي عرفها الشعراء الجاهليين، مثل البحر الطويل، والبسيط والوافر، والكامل، والمتقارب، ومن الظواهر العروضية التي استخدمها صعاليك الجاهلية بكثرة، هي انتشار الرجز قبيل مصارعهم، وسبب ذلك سهولة هذا الوزن مع حركة قتال الأعداء، فمثلاً ما نراه عند صخر الغي حين يحيط به الأعداء في ساعته الأخيرة يرتجز ويحث أصحابه على القتال والثبات، وكذلك الشنفرى عندما رثى يده رجلاً قبل أن يضربه أعداؤه¹⁹⁷.

ومن أشهر أشعار صعاليك الجاهلية في بحر الطويل لامية الشنفرى، الذي يقول في مطلعها:

" أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيئِكُمْ .. فَإِنِّي إِلَى قَوْمٍ سَوَاكُم لَأَمِيلُ
فَقَدْ حُمَّتِ الْحَاجَاتُ وَاللَّيْلُ مُقَمَّرٌ .. وَشُدَّتْ لَطِيَّاتُ مَطَايَا وَأَرْحُلُ
وَفِي الْأَرْضِ مَنَآئِلٌ لِلْكَرِيمِ عَنِ الْأَذَى .. وَفِيهَا لِمَنْ خَافَ الْقَلَى مُتَعَزِّلُ
لَعَمْرُكَ مَا فِي الْأَرْضِ ضِيقٌ عَلَى إِمْرِي .. سَرَى رَاغِباً أَوْ رَاهِباً وَهُوَ يَعْزِلُ
وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سَيِّدٌ عَمَلَسَ .. وَأَرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرَفَاءُ جَبِيلٌ¹⁹⁸ 199"

أما عند صعاليك الأموية فقد طغى استخدام بحر الطويل على أوزان أشعار صعاليك العصر الأموي كما كان في العصر الجاهلي، ثم تلاه البحر البسيط ثم الوافر والكامل، ولأن هذه البحور كانت الأنسب للمعاني والصور والتفاصيل السردية لحياتهم التي تعتمد على التشرد والترحال، ونرى أن صعاليك العصر الأموي كانوا يكثر من استخدام البحور الطويلة، فكانت أكثر استخداماً مثل أشعار صعاليك العصر الجاهلي، ثم يليه بحر البسيط، ثم الوافر والكامل²⁰⁰.

¹⁹⁷ خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 316 - 318.

¹⁹⁸ سيد: الذئب، العملس: القوي السريع، الأرقط: الذي فيه سواد وبياض، زهلول: خفيف، العرفاء: الضبع الطويلة العرف، جبيل: من أسماء الضبع.

¹⁹⁹ الشنفرى، ديوان الشنفرى، ص 58 - 59.

²⁰⁰ عبد المطلب محمود، الإبداع والاتباع في أشعار فتاك العصر الأموي، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب

ومما قاله مالك بن الريب من بحر الطويل:

"عليّ دماء البُدن إن لم تُفارقني .. أبا حَرَدَبٍ يوماً وأصحاب حَرَدَبٍ
سَرَت في دُجا ليلٍ فأصبح دونها .. مفاوِزُ جمران الشُّريف وغُرب
تطالع من وادي الكلاب كأنها .. وقد أنجدتُ منه فريدةً دبذب²⁰¹"

وبذلك فإن صعاليك العصر الأموي كانوا يكثرّون من استخدام البحور والأوزان الشعرية الطويلة²⁰²، وهي الأوزان والبحور الأكثر استخداماً في أشعار صعاليك العصر الجاهلي خاصة، وهي البحور المعروفة التي كان استخدامها أكثر من غيرها في معظم الأشعار²⁰³.

واختلف نظام أبيات الصعلوك عن نظام أبيات القصيدة العربية من حيث التصريع ونعني بالتصريع أي أن يكون مصراعاً البيت الأول من القصيدة متفقين في الكلمة الأخيرة، والتي هي قافية القصيدة، فالقافية التي يلتزم بها الشاعر في أواخر أبيات القصيدة، نجده يلتزم بها في آخر الشطر الأول من البيت الأول.

فقد كان الصعلوك خارجاً عن قبيلته ونظامها متحرراً من قيودها، فهو إن التزم ببجور الشعر المعروفة إلا أنه لم يتقيد بظاهرة التصريع حيث خرج في شعره عن نمط القصيدة الجاهلية، فكأنما أتت أشعارهم ثورة على الأوضاع الفنية في الشعر الجاهلي القبلي، فأتى شعر الشنفرى خالياً من التصريع إلا تائيته، وكذلك شعر تأبط شراً ما عدا قافيته، وكذلك كل شعر عروة بن الورد ما عدا رائيتين له، وكل شعر أبي خراش والأعلم وعمرو ذي الكلب أتى خالصاً تماماً من التصريع²⁰⁴.

وأما عند صعاليك العصر الأموي فغلب طابع عدم التصريع عليها، فقليل من شعرهم مصرع والكثير لا يلتزم بطابع التصريع كما فعل سباقهم من صعاليك العصر الجاهلي، وبذلك تشابه صعاليك العصرين في غلبه خلوه من التصريع.

²⁰¹ الريب، ديوان مالك بن الريب، ص72.

²⁰² محمود، الإبداع والاتباع في أشعار فتاك العصر الأموي، 86 - 88.

²⁰³ خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 316.

²⁰⁴ خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 274 - 275.

ومما ورد مصرعاً من صعاليك الجاهلية قصيدة الشنفرى التي أولها:

" أَلَا أُمُّ عَمْرٍو أَجْمَعَتْ فَاسْتَقَلَّتْ وَمَا وَدَّعَتْ جِيرَانَهَا إِذْ تَوَلَّتْ " ²⁰⁵

أما من الكثرة التي وردت غير مصرعه لامية الشنفرى التي أولها:

" أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيحِكُمْ فَإِنِّي إِلَى قَوْمٍ سَوَاكُم لَأُمِيلُ " ²⁰⁶

ومن الكثرة التي وردت غير مصرعه من العصر الأموي مرثية مالك بن الريب التي يقول أولها:

" أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيَّتْ لَيْلَةً بَجَنْبِ الْعَصَا أَرْجَى الْقِلَاصِ النَّوْاجِيَا " ²⁰⁷

الموضوع	العصر الجاهلي	العصر الأموي
البنية الموسيقية.	استخدموا بحر الطويل، والبسيط، والوافر، والكامل والمتقارب.	طغى استخدام بحر الطويل والبسيط والوافر.
التصريع.	قليل من شعرهم مصرع والكثير منهم لا يلتزم التصريع.	قليل من شعرهم مصرع والكثير منهم لا يلتزم التصريع.

²⁰⁵ الشنفرى، ديوان الشنفرى، ص31

²⁰⁶ الشنفرى، ديوان الشنفرى، ص 58.

²⁰⁷ الريب، ديوان مالك بن الريب، ص88.

2. 3. من حيث المحتوى:

إن الشعر عند الصعاليك كان متنفساً يعبرون به عن حاجاتهم وأحاسيسهم ومغامراتهم، والموضوعات التي اهتمم بها الصعاليك في أشعارهم هي موضوعات توضح الواقع الذي عاشوه، فكانت موضوعات أشعارهم منتقاة من طبيعتهم وظروف معيشتهم في الفياقي والقفار.

"بيد أن أشعار الصعاليك تصور لنا أيضاً الكثير من أحوالهم وأفكارهم، ففيها صيحات الفقر والجوع وما تمور به نفوسهم من ثورة عارمة على الأغنياء والأشياء، فضلاً عما في نفوس ببعضهم، كأبناء الإماء من شعور بالامتهان والضعفة، ويحدثنا هؤلاء الصعاليك عما كانوا يكابدونه من الفقر والجوع"²⁰⁸.

في العصر الجاهلي غلبت على مقطوعات الصعاليك موضوعات أحاديث الفقر والفرار ومصاحبة الحيوان وشعر المراقب ووصف الأسلحة، قد جمع الفقر والتشرد والتمرد ومصاحبة الحيوان بين شعراء صعاليك الجاهلية والأموية، إلا أن صعاليك الأموية أهملوا بعض الموضوعات، واستحدثوا موضوعات جديدة وهي الحنين إلى الأهل والأحباب، والحديث عن عذاب السجون، ومدح العمال والخلفاء، والتوبة والاعتذار والاستغفار وسنتحدث عنها بالتفصيل.

الموضوعات المشتركة بين شعراء صعاليك العصرين الجاهلي والأموي:

1. 2. 3. الفقر:

إن أول صفة رافقت الصعاليك في العصر الجاهلي هي الفقر الشديد الذي لازمهم منذ نشأتهم وكان من أبرز الأسباب التي دفعتهم إلى الصلعة، فقد تردد موضوع الفقر في أشعارهم مقروناً بالغارات والغزو، وقد صور الصعاليك حالهم مع الفقر وحرمانهم من متع الحياة، فالفقر رافقهم منذ بداياتهم، وكان أكبر سبب للصلعة والفتك.

²⁰⁸ إحسان سركريس، مدخل إلى الأدب الجاهلي، بيروت، دار الطليعة، ط1، 1970، ص194.

وقد صور صعاليك العصر الجاهلي الفقر وأثر قلة الزاد ونحول الجسم بسبب الفقر الشديد، فكانوا يعانون من الجوع القاسي حتى بلغ منهم أن تعودوا عليه وراضوا أنفسهم على طرق يقامون بها الجوع، فيقول تأبط شراً واصفاً التصاق أمعائه من الجوع:

" قَلِيلِ ادَّخَارِ الزَّادِ إِلَّا تَعْلَةً .. وَقَدْ نَشَرَ الشُّرُوفُ²⁰⁹ وَالتَّصَقَ الْمَعَى²¹⁰

وعندما ننظر في أخبار الصعاليك نجد الشكوى في أشعارهم الفقر والإحساس المرير بالهوان وعدم تقدير مجتمعهم لهم والعجز عن الأخذ بنصيبيهم في الحياة، وذلك لأنهم عاشوا في مجتمع تعسفي حرّمهم من حقوقهم الاجتماعية ومن مقومات الحياة التي يسعى إليها كل فرد، فلم تبقى لهم سوى أنفسهم لمواجهة الحياة، وقد تحدثوا عن حالاتهم مع الفقر وصراهم الدائم لمقاومته، وعن شعورهم بالجوع والحاجة للكأ والماء.

فكان هذا الجوع عند صعاليك الجاهلية حالة دائمة لديهم فقد راضوا أنفسهم عليه، فكان الصعلوك يحاول معالجة الجوع بالصبر الشديد وقوة الإرادة، ويحدثنا الشنفرى محاولاً تناسيه الجوع وتجاهله حتى ينجح في الصبر والتغلب عليه، وكان يفضل أن يستق تراب الأرض لأنه لم يستطع تحمل الجوع على أن يمن عليه إنسان بطعام، ولولا عزة نفسه لما عز عليه طعام ولا شراب، فيقول في لاميته:

" أُدِيمُ مِطَالَ الْجُوعِ حَتَّى أُمِيتَهُ .. وَأَضْرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحاً فَأُدْهِلُّ

وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الْأَرْضِ كَيْلًا يُرَى لَهُ .. عَلَى مِنَ الطَّوْلِ امْرُؤٌ مَتَّطُولٌ

ولولا اجْتِنَابُ الدَّأَمِ²¹¹ لَمْ يُلَفَّ مَشْرَبٌ .. يُعَاشُ بِهِ إِلَّا لَدَيَّ وَمَأْكُلٌ " ²¹²

ويتحدث صخر الغي عن فقره وضيق يده، فيقول:

²⁰⁹ الشرسوف: هو طرف أضلاع الصدر التي تشرف على البطن، وتبرز من شدة ضمور الجسم والبطن.

²¹⁰ تأبط شراً، ديوان تأبط شراً، ص 115.

²¹¹ الدأَم: هو العيب الذي يذم.

²¹² الشنفرى، ديوان الشنفرى، ص 62 - 63.

" إِنِّي بَدَّهْمَاءَ قَلَّ مَا أَجِدُ .. عَاوَدَنِي مِنْ حِجَابِهَا زُؤْدٌ ²¹³ " ²¹⁴

ومن آثار الفقر الذي كان يشتكي منها صعاليك الجاهلية هي نحول وهزالة أجسادهم، ونجد ذلك بصورة واضحة في أشعار الشنفرى وعروة بن الورد وتأبط شراً، فمثلاً يصف الشنفرى نحول جسمه، فيقول:

"وَأَلَفَ وَجَهَ الْأَرْضِ عِنْدَ افْتِرَاشِهَا .. بِأَهْدَأَ تُنْبِيهِ سَنَاسِنُ قُحْلٍ ²¹⁵

وَأَعْدِلُ مَنْحُوضاً كَأَنَّ فُصُوصَهُ .. كَعَابُ دَحَاها لَا عِبَّ فَهِيَ مَثَلٌ ²¹⁶ " ²¹⁷

" ويصف نحوله جسمه في هذه الأبيات وأنه أَلَفَ افتراش الأرض بظهر ظاهر عظامه، حتى أن هذه العظام هي التي تستقبل الأرض، فيرتفع الجسم عنها، كناية عن شدة هزله ونحوله، وأن ذراعيه خالية من اللحم لا تبدو فيها إلا مفاصل صلبة كأنها من حديد" ²¹⁸.

فإذا تأملنا أخبار الصعاليك نجد إحساسهم بالفقر الشديد وهوان منزلتهم في مجتمعهم والعجز عن الأخذ بنصيبهم في الحياة كما يأخذها سائر أفراد المجتمع وحرمانهم من العدالة الاجتماعية، وتجريدتهم من كل الوسائل المشروعة، أدى بهم إلى السلب والنهب، لم تبق لهم سوى فرديتهم ²¹⁹.

كان حديث صعاليك الأموية عن الفقر يختلف عن حديث صعاليك الجاهلية، فكان فقر صعاليك الأموية لا يبلغ بهم درجة الجوع ونحول الأجسام، وما دفع صعاليك العصر الأموي إلى التصعلك ليس الجوع إنما الشعور بأن فقرهم يجعلهم دون منزلة من الناس وأن فقرهم يحرمهم من طيبات العيش ²²⁰.

²¹³ الزؤد وهو الذعر والفرزع.

²¹⁴ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج2، ص 668.

²¹⁵ الأهدأ: الشديد الثبات، تنبيهه: تجفيه وترفعه، السناسن: فقار العمود الفقري، قحل: جافة يابسة.

²¹⁶ أعدل: أسوي تحت رأسي ذراعاً، المنحوض: الذي ذهب لحمه، الفصوص: مفاصل العظام، الكعاب: ما بين الأنبوبين من القصب والمقصود هنا شيء يلعب به، دحاها: بسطها، مثل: المنتصب.

²¹⁷ الشنفرى، ديوان الشنفرى، ص67.

²¹⁸ الشنفرى، ديوان الشنفرى، ص67.

²¹⁹ سركيس، مدخل إلى الأدب الجاهلي، ص195.

²²⁰ حنفي، شعر الصعاليك، ص 196.

أما مالك بن الريب فيتحدث عن نحول جسمه وذلك بسبب صراعه مع أعدائه فأدى إلى نحوله،
فيقول:

" وَقَدْ تَقُولُ مَا تَخْفِي لَجَارَتِهَا .. إني أرى مالك بن الريب قد نَحَلَ

وكم يشهد الحرب يَصْلَاهَا وَيُسْعِرُهَا .. تراه مما كَسَتْهُ شاحِباً وَجَلَا " ²²¹

ويصف عبيد بن أيوب صبره على تمزق ثيابه وجذبه وشحوبه، فإذا تصيد فريسه فإنه سريع الأكل
لها، فهو يأكل بعد الصيد فيضع صيده على الحطب ولا ينتظر الغلي والطهي لها، فيقول:

" رَأَتْ خَلْقَ الْأُدْرَاسِ ²²² أَشْعَتْ شَاحِباً .. عَلَى الْجَدْبِ بَسَاماً كَرِيمَ الشَّمَائِلِ

تَعَوَّدَ مِنْ آبَائِهِ فَتَكَاتِهِمْ .. وَإِطْعَامِهِمْ فِي كُلِّ غَبْرَاءٍ ²²³ شَامِلِ

إِذَا صَادَ صَيْداً لَفَّهْ بِضَرَامَةٍ .. وَشَيْكاً وَلَمْ يَنْظُرْ لِنَصَبِ الْمَرَاكِ

وَنَهْساً كَنَهَسَ الصَّقْرُ ثُمَّ مَرَّاسَهُ .. بِكَفِّهِ رَأْسَ الشَّيْخَةِ الْمُتَمَائِلِ " ²²⁴

وقد اشترك صعاليك الجاهلية والأموية في الفقر، إلا أن الصعلوك الجاهلي كان فقره يبلغ منه حد
الجوع المؤدي إلى الهلاك، ولا يرى أمامه إلا أن يسف التراب كما يقول الشنفرى، فكان للجوع الشديد تأثير
كبير في حياتهم ثم أشعارهم فإن شدة الجوع جعلت صعاليك الجاهلية يرتادون أماكن لم يضطر صعاليك
الأموية أن يخرجوا إليها.

فلاحظ في مقارنة بين صعاليك الجاهلية وصعاليك الأموية من حيث الفقر وآثاره عليهم، أنهم
اشتركوا في معاناة الفقر، إلا أننا نجد أن الصعلوك الأموي لا يبلغ به هذه الدرجة من الجوع الشديد و هزلة
أجسادهم، لذلك لم يتحدث صعاليك الأموية عن الجوع، لكن تحدثوا عن نحول أجسامهم من غير أن يقرنوه
بالجوع الشديد، فلم يكن الدافع للصعلكة في العصر الأموي هو الجوع كما كان عند الصعاليك الجاهليين،

²²¹ الريب، ديوان مالك بن الريب، ص82.

²²² الأدارس: جمع درس وهو الثوب البالي الخلق،

²²³ الغبراء: هي السنة المجذبة.

²²⁴ طريفي، ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، ج1، ص 407 - 408.

إنما هو الشعور أنهم أقل منزلة في مجتمعهم، فمالك بن الربيع مثلاً لا يشكو الجوع في أبيات له، بل يشكو الحرمان من القصور ونعيمها فيقول :

" لم يَدِرْ ما عُرف القصور وفِيؤها .. طاو بنخل سوايها المتمايل

يقظ الفؤاد إذا القلوب تأنست .. جزعاً ونبه كل أروع باسل" ²²⁵

وبذلك قد اشترك صعاليك العصر الجاهلي وصعاليك العصر الأموي في حديثهم عن الفقر والشكوى منه، إلا أن درجة الفقر كانت مختلفة، فقد بلغ فقر الصعلوك الجاهلي منه حد الجوع الشديد بل حد الهلاك، أما فقر صعاليك الأموية لا يبلغ هذه الدرجة من شعورهم بالجوع، فقد تحدثوا عن نحول أجسامهم لكن لم يقرنوه بالجوع الذي يؤدي إلى الهلاك كما كان عن صعاليك الجاهلية، إنما كان فقرهم هو مجرد شعورهم بأنهم أقل منزلة ونعيم من غيرهم، فكان مجتمعهم ينعم بالرخاء إثر الفتوحات الإسلامية.

على عكس الوضع الذي كان في العصر الجاهلي، وانفراد صعاليك الجاهلية بهذا الجوع كان له تأثير كبير على حياتهم وأشعارهم، فالاختلاف في المستوى المعيشي ترتب عليه موضوعات انفراد بها صعاليك الجاهلية نتيجة الجوع الشديد، كشعر المراقب وشعر العدو، مما جعل صعاليك العصر الجاهلي يرتادون أماكن لا يضطر أن يخرج إليها صعاليك العصر الأموي.

وفي نهاية هذه المقارنة وجدنا أن التشابه في الحديث عن الفقر أما الاختلاف في أن صعاليك العصر الجاهلي تحدثوا عن الفقر الذي كان سبباً في الجوع الشديد متألمين منه ومن نحول أجسامهم، أما صعاليك العصر الأموي فقد تحدثوا عن فقرهم الذي جعلهم أقل منزلة ونعيم وربطوا الفقر بحرمانهم من رغد العيش وحرمانهم من القصور ونعيمها، وقد تحدث صعاليك الأموية عن نحول أجسادهم إلا أنهم لم يربطوا بين النحول والجوع المهلك كما ربط صعاليك الجاهلية.

²²⁵ الربيع، ديوان مالك بن الربيع، ص 81 - 83.

الموضوع	العصر الجاهلي	العصر الأموي
الفقر .	ارتبط الفقر بالجوع وبنحول أجسادهم.	لم يرتبط الفقر بالجوع وبنحول أجسادهم.
	كان الفقر هو الدافع الأساسي للصعلة.	الشعور أنهم أقل منزلة في مجتمعهم هو الدافع للصعلة.

2. 2. 3. التشرد والتأبد:

تحدث صعاليك الجاهلية عن تشردهم في الفلوات والقفار الموحشة، واقتروا بمعرفتهم وديانها وجبالها دون دليل، فكانوا يفخرون ويمدحون أنفسهم ورفاقهم بأنهم ألفوا وحوش الصحراء والاهتداء في شعابها الغامضة الموحشة.

ووصف صعاليك الأموية تشردهم في أعماق الصحراء وتأبدهم في شعابها الغامضة، وكيف أنهم كانوا متقبلين لمصاعبها وضنكها، وعلى شدة صبرهم وقوة عزمهم إلا أنهم لم يخفوا ما كان يسيطر عليهم فيها من القلق والخوف²²⁶.

فكان الصعلوك تأبط شراً يتحدث عم امرأة خطبها فامتنعت عليه لتشرده وألفته وحش الصحراء، حتى كادت الوحوش أن تصافحه لو أن وحوشاً تصافح إنساً، فيقول:

" يَبِيتُ بِمَعْنَى الْوَحْشِ حَتَّى أَلْفَنَهُ .. وَيُصْبِحُ لَا يَحْمِي لَهَا الدَّهْرَ مَرْتَعَا

على غِرَّةٍ أَوْ جَهْرَةٍ مِنْ مَكَانٍ .. أَطَالَ نِزَالَ الْمَوْتِ حَتَّى تَسْعَسَعَا

رَأَيْنَ فَتًى لَا صَيْدُ وَحْشٍ يُهْمُهُ .. فَلَوْ صَافَحَتْ إِنْسًا لَصَافَحْنَاهُ مَعَا " ²²⁷

²²⁶ عطوان، الشعراء الصعاليك في صدر الإسلام والعصر الأموي، ص151.

²²⁷ تأبط شراً، ديوان تأبط شراً، ص 116-117.

وكان عروة بن الورد يفتخر بقدرته على السير والاهتداء في الفلاة الموحشة والغامضة التي يعرض سالكها نفسه للخطر من غير أن يستعين بأحد أو يدلّه على طرقها، فيقول عروة:

"وَعَبْرَاءَ مَخْشِي رَدَاهَا مَخُوفَةٍ .. أَخُوها بِأَسْبَابِ الْمَنَايَا مُعَرَّرُ

قَطَعْتُ بِهَا شَكَّ الْخِلَاجِ وَلَمْ أَقْلِ .. لَخَيَّابَةٍ هَيَّابَةٍ كَيْفَ تَأْمُرُ؟²²⁸

تُذَارِكُ، عَوْدًا، بَعْدَ مَا سَاءَ ظَنُّهَا .. بِمَاوَانَ، عِرْقُ، مِنْ أُسَامَةِ أَزْهَرُ²²⁹ " 230

"ويتحدث الشنفرى عن وادٍ في أعماق الصحراء ملتف الشجر ألفته الجن حتى بات يخشاه الشجعان، ويحكى الشنفرى كيف سار في الوادي بكل جرأة وشجاعة في وقتٍ باكرٍ قبل أن يتطاير الندى عن أوراق الشجر، فيقول:

وَوَادٍ بَعِيدِ الْعُمُقِ ضَنْكَ جُمَاعُهُ .. مَرَّاصِدُ أَيْمٍ قَانِتِ الرَّأْسِ أَخُوفُ²³¹

وَحُوشٍ مَوَى زَادِ الذَّنَابِ مُضِلَّةٍ .. بَوَاطِنُهُ لِلْجَنِّ وَالْأُسْدِ مَأْلَفُ²³²

تَعَسَّفْتُ مِنْهُ بَعْدَ مَا سَقَطَ النَّدَى .. غَمَالِيلٌ يَخْشَى عَيْلَهَا الْمُتَعَسِّفُ²³³ " 234

وقد تحدث صعاليك العصر الأموي عن تشردهم في الفلوات وصاحبتهن لحيوانها، وأنهم كانوا لا يجدون الأُنس والأمان إلا في المكان القفر الموحش الذي لا إنسان فيه، فيحدثنا الصعلوك مالك بن الريب عن ضربه في القفار الموحشة التي لا يجتازها الناس، حيث كان يمضي ليله وهو يوغل فيها حتى يصل إلى مكان آمن لينام، ولكنه لا يغط في النوم غطيظاً بل ينام نوماً خفيفاً، ليظل متأهباً لكل أمر طارئ، فكان يحرص على أن يكون دائماً حذراً مستعداً لدفع كل خطر عنه، فيقول:

"أَدَلَجْتُ فِي مَهْمَةٍ مَا إِنْ أَرَى أَحَدًا .. حَتَّى إِذَا حَانَ تَعْرِيسُ لِمَنْ نَزَلَا

228 الخيابة: كثيرة الخيبة، هيابة: الفروقة، كيف تأمر: أي ولم أوامره في أمر.

229 عوذ وأسامة: هما قبيلتان من عبس، أزهر: نقي شريف.

230 ابن السكيت، شرح ديوان عروة بن الورد، ص 77-78.

231 ضنك: ضيق، الأيم: الحية الذكر، القانت: الذليل؛ المتواضع.

232 الوحوش: بلاد الجن، موى زاد الذئاب: قيل لعله "لوى زاد الذئاب".

233 تعسفت: ركبت عن غير هداية، الغماليل: الروابي.

234 الشنفرى، ديوان الشنفرى، ص55.

وَضَعْتُ جَنْبِي وَقُلْتُ اللَّهُ يَكْلُونِي .. مَهْمَا تَنَمَّ عَنْكَ مِنْ عَيْنٍ فَمَا غَفَلَا
وَالسَّيْفُ بَيْنِي وَبَيْنَ الثَّوْبِ مَشْعُرُهُ .. أَخْشَى الْحَوَادِثَ إِنِّي لَمْ أَكُنْ وَكَلَا
مَا نِمْتُ إِلَّا قَلِيلًا نِمْتُهُ شَرِّرًا .. حَتَّى وَجَدْتُ عَلَى جُثْمَانِي النِّقْلَا
دَاهِيَةً مِنْ دَوَاهِي اللَّيْلِ بَيَّتَتِي .. مُجَاهِرًا يَبْتَغِي نَفْسِي وَمَا خَتَلَا
أَهْوَيْتُ نَفْحًا لَهُ وَاللَّيْلُ سَاتِرُهُ .. إِلَّا تَوَحَّيْتُهِ وَالْجَرَسُ فَإِنْ خَذَلَا
أَوْقَدْتُ نَارِي وَمَا أُدْرِي إِذَا لَبِدٌ .. يَغْشَى الْمُهْجَهَجَ عَضُّ السَّيْفِ أَوْ رَجَلَا
لَمَّا ثَنَى اللَّهُ عَنِّي شَرَّ عَدَوْتِهِ .. رَقَدْتُ لَا مُثَبِّتًا دُعْرًا وَلَا بَعَلَا
أَمَا تَرَى الدَّارَ قَفْرًا لَا أَنْيَسَ بِهَا .. إِلَّا الْوُحُوشَ وَأَمْسَى أَهْلُهَا إِحْتَمَلَا
بَيْنَ الْمُنِيفَةِ حَيْثُ اسْتَنَّ مَدْفَعُهَا .. وَبَيْنَ فَرْدَةٍ مِنْ وَحْشِيَّهَا قِيلاً " 235

وصف الصعاليك الأمويون حياة التشرد والتأبد في الصحراء وما قاسوه من أهوال ومخاطر في القفار الموحشة، ووصفوا المتاعب التي لازمتهم في فرارهم من عقاب السلطة لاقترافهم جنايات استحقوا العقاب عليها، ولما في حياتهم من صعوبة في العيش والشقاء، وكثرة التنقل والترحال.

ويحكي القتال الكلابي أبياتاً يذكر فيها طلب الخليفة مروان بن الحكم له بعد هربه من السجن،

فيقول:

" أَيْرِسُ مَرَوَانَ الْأَمِيرُ رِسَالَةً .. لَا تَيْتُهُ إِنِّي إِذْنُ لَمْضَلُّ
وَمَا بِي عِصْيَانٌ وَلَا بُعْدُ مَنْزِلٍ .. وَلَكِنِّي مِنْ خَوْفِ مَرَوَانَ أَوْجَلُ
سَأَعْتَبُ أَهْلَ الدِّينِ مِمَّا يَرِيبُهُمْ .. وَأَتَّبِعُ عَقْلِي مَا هَدَى لِي أَوَّلُ
أَوْ الْحَقُّ بِالْعَنْقَاءِ فِي أَرْضٍ صَاحَةٍ .. أَوْ الْبَاسِقَاتِ بَيْنَ غَوْلٍ وَغُلْغُلٍ " 236

235 الريب، ديوان مالك بن الريب، ص 81 - 82.

236 الكلابي، ديوان القتال الكلابي، ص 77.

فتحدث القتال عن تشرده، وأن سبب تشرده لم يكن تمرداً ولا عصياناً على السلطة، لكن تشرده كان تشرد الهارب من يد السلطان وأعدائه لجناية اقترفها، ولخوفه من العقوبة التي تنتظره، فكان يخشى السلطة ويفر منها ويرضى بالتشرد في الفيافي الموحشة، فأصبحت المفازة هي القلب والحضن الدافئ التي لجأ إليها ليحتمي بها من العقوبة.

وقد عبرت أشعار صعاليك العصر الأموي عن أحوال وظروف كانت جديدة لم يعهدها صعاليك العصر الجاهلي الذين عاشوا حياة التشرد في الفيافي والقفار الموحشة، وقد كان صعلوك العصر الأموي يبقى في حيرة وحذر ويبقى متسلحاً بقوسه وسيفه احتراساً من الخطر²³⁷.

وبذلك نرى أنه قد اتفق صعاليك العصر الجاهلي والأموي في الحديث عن تشردهم في الفيافي الموحشة، فقد تحدثوا عن القفار البعيدة وتعايشهم مع الجن وحيوان الصحراء، وكان الاختلاف في الحديث عن التشرد أن صعاليك العصر الأموي كانوا يشعرون في تشردهم بالخطر والذعر والخوف على عكس سابقيهم من صعاليك الجاهلية.

الموضوع	العصر الجاهلي	العصر الأموي
التشرد والتأبد.	لم يشعر صعاليك الجاهلية بالخوف والذعر في تشردهم وتأبدهم في الصحراء.	شعر صالليك الأموية بالخوف والذعر في تشردهم وتأبدهم في الصحراء.

3. 2. 3. الهجاء والتهديد:

تحدث صعاليك الجاهلية عن التوعد والتهديد، فكان لكل صعلوك عدو واحد أو قبيلة بحد ذاتها كما كان عند الشنفرى فقد توعد بني سلامان، فقد توعدهم توعداً عنيفاً في شعره.

²³⁷ محمود، الإبداع والاتباع في أشعار فتاك العصر الأموي، ص 44 - 45.

وقد نرى أيضاً في أشعارهم توعدهم لقبائل أخرى، وتوعد الصعلوك للصعلوك، وكان الشنفرى قد عاهد نفسه أن يقتل منهم مئة، وكان يتوعدهم في شعره توعداً عنيفاً، وقد كانوا السبب لتصلكه، فيعلن لهم أنه ما لم يأت الموت ويحل بينه وبينهم لن يكف عن الغزو عليهم، وكان يرجو أن يمد الله أجله حتى يشفي غليله حين يلاقيهم في عقر دارهم:

" فَإِنْ لَا تَزُرْنِي حَتْفَتِي أَوْ تُلَاقِنِي .. أَمْشِ بِدَهْرٍ أَوْ عِدَافٍ فَنَوْرًا
أَمْشِي بِأَطْرَافِ الْحَمَاطِ، وَتَارَةً .. يَنْفِضُ رِجْلِي بُسْبُطًا فَعَصْنَصْرًا
أُبْغِي بَنِي صَعْبِ بَنٍ مَرِّ بِلَادِهِمْ .. وَسَوْفَ أَلَاقِيهِمْ إِنْ اللَّهُ أَخَّرَا
وَيَوْمًا بِذَاتِ الرِّسِّ أَوْ بَطْنِ مِجْلٍ .. هُنَالِكَ نَبْغِي الْقَاصِيَّ الْمَتَعَوِّرَا " ²³⁸

وقد كان يتأخر عن غزوهم ولم يكن ذلك دليلاً على كفه عنهم، فكان يمهلهم وقتاً، كان على ثقة من قدرته وجراته على غزو أعداءه، وكان أحب شيء إليه الإغارة عليهم، وقطع الطريق على سادتهم، فقد كان خبيراً بالفيافي وشعابها، فيقول:

" كَأَنْ قَدْ فَلَا يَغُرُّكَ مِنِّي تَمْكُّتِي .. سَلَكْتُ طَرِيقًا بَيْنَ يَرْبَعٍ فَالْسَرْدِ ²³⁹
وَإِنِّي زَعِيمٌ أَنْ أَلْفَ عَجَاجَتِي .. عَلَى ذِي كِسَاءٍ مِنْ سَلَامَانَ أَوْ بُرْدٍ
وَأَمْشِي لَدَى الْعَصْدَاءِ أُبْغِي سَرَاتَهُمْ .. وَأَسْلُكَ خَلًّا بَيْنَ أَرْقَاغٍ وَالسَرْدِ ²⁴⁰
هُمْ عَرَفُونِي نَاشِئًا ذَا مَخِيلَةٍ .. أَمْشِي خِلَالَ الدَّارِ كَالْأَسَدِ الْوَرْدِ
كَأَنِّي إِذَا لَمْ أُمْسِ فِي دَارِ خَالِدٍ .. بَنِيْمَاءَ لَا أُهْدَى سَبِيلًا وَلَا أُهْدَى " ²⁴¹

وقد كان تأبط شراً لا يرضى بغير غزو قبيلة خثعم وبجيلة وشمالة وهذيل، ويرى أن ذلك كله يرجع إلى قدميه التي وضع الله بهما قوة وشرأ، فيقول:

²³⁸ الشنفرى، ديوان الشنفرى، ص 46 - 47.

²³⁹ يربغ: موضع في ديار بني تميم بين عمان والبحرين، السرد: موضع في بلاد الأزد.

²⁴⁰ الصعداء: أرض لبني سلامان، سراة القوم: أشرافهم، الخل: الطريق الذي ينفذ بين الرمال، الأرقاغ والسرد: جبالان لبني سلامان.

²⁴¹ الشنفرى، ديوان الشنفرى، ص 42 - 43.

" رَأَى قَدَمَيَّ وَقُعُومَهُمَا حَثِيثٌ .. كَتَحْلِيلِ الظِّلِيمِ دَعَا رَبَّالَهُ²⁴²

رَأَى بِهِمَا عَذَاباً كُلَّ عَامٍ .. لِحَشْتَعَمَ أَوْ بَجِيلَةً أَوْ ثَمَالَهُ

وَشَرُّ كَانَ صُبِّ عَلَى هُدَيْلٍ .. إِذَا عَلِقَتْ حِبَالُهُمْ حِبَالَهُ "

فقد كان يريد أن يثأر لصديقه ولا يترك دمه، وكان يهدد بالانتقام الشنيع، فيقتل فيه الرجال ويسبي النساء²⁴³.

أما توعده الصعلوك للصعلوك فقد كان قليلاً، ومثال ذلك ما توعده صخر الغي الهذلي لتأبط شراً، فقد كان يصفه بأنه يعاني صراعاً نفسياً، ووصفه بأنه ابن تُرنا، يعني تأبط شراً وأمه تُرنا ويقصد بذلك شتمه به، وسبب ذلك حقه عليه، وينصحه بأن يخفف من حدة الصراع النفسي، فيقول:

" فَإِنْ ابْنُ تُرْنَا إِذَا حَبَّتْكُمْ .. أَرَاهُ يُدَافِعُ قَوْلًا عَنِيهَا

قَدْ افْتَى أَنَامِلُهُ أَرْمُهُ .. فَأَمْسَى يَعْصُ عَلَيَّ الْوُظَيْفَا

فَلَا تَقْعُدَنَّ عَلَى رَحَّةٍ .. وَتُضْمِرَ فِي الْقَلْبِ وَجْداً وَخَيْفَا

وَلَا تُقْدِمَنَّ عَلَى خُطَّةٍ .. تَكُونُ إِذَنْ لَكَ حَنْفًا ذَفِيهَا

وَلَا أَبْغِيَنَّكَ بَعْدَ النُّهَى .. وَبَعْدَ الْكَرَامَةِ شَرًّا ظَلِيهَا

وَلَا أَرْفَعَنَّكَ رَفَعَ الصَّدِيدِ .. عِ لَاءَمَ فِيهِ الصَّنَاعُ الْكَثِيْفَا " ²⁴⁴

أما صعاليك العصر الأموي فقد توعدوا قبائلهم لأنها لم تتصرهم ولم تأخذ بأرائهم، فكان القتال الكلابي يسخر برجل من عشيرته يقذفه بالبخل الشديد، إنه ليتوفر على زاده وحده وأفراد عشيرته جيا ع قد برح بهم الجوع، فكان هو سمين، وهو نحفاء ضعفاء، ويرميه بأنه خلق على الشح والبخل، وأن ما عليه طبيعة فطر عليها ولن يتحول عنها، وعلى الرغم من أن القتال كان من أشهر الصعاليك إلا أنه كان لا يرضى هذا السلوك، وقد كان جزيل الشمائل، كريم النفس، صاحب مروءة وشكيمة، فيقول:

" يَا أَيُّهَا الْعَفِجُ السَّمِينُ وَقَوْمُهُ .. هَزَلَى تُجَرِّرُهُمْ ضَبَاعُ جَعَارٍ

²⁴² تحليل الظليم: أسرع عدوه وأخفه وكأنه يمس الأرض مساً، الرئال: جمع رأل وهو ولد النعام.

²⁴³ تأبط شراً، ديوان تأبط شراً، ص 197 - 198.

²⁴⁴ السكري، شرح أشعار الهذليين، ص 299 - 300.

أَطْعِمْ وَلَسْتَ بِفَاعِلٍ وَلِتَعْلَمُنْ .. أَنَّ الطَّعَامَ يَحُورُ شَرَّ مَحَارٍ
 ذهب المأكُلُ والسُّنُونُ وجعفرٌ .. بيضُ الوجوه نَقِيَّةُ الأبْصَارِ " 245

أما هجاء الصعلوك لأبناء القبائل الأخرى فقليل ونادر، نرى ذلك في أبيات هجاء وتوعد لعبيد بن أيوب العنبري، وهو يهزأ فيها من رجلين من قبيلة ضبة، ضرباه لأنه تحدث إلى فتاة منهم، ويذكر في أبياته بشجاعته وقوته ويتوعدهما بالغارات، وبقدرته على غزوهما وقتلهما، إلا أنه يتراجع عن ذلك لا لجبن أو خوف بل احتراماً وتقديراً لعشيرتهم التي تحافظ على الجار وتحميه عند الشدة، فيقول العنبري:

"بِأَيِّ فَتَى يَا ابْنِي حَبِيبِ بَلَلْتُمَا .. إِذَا ثَارَ يَوْمًا لِلْغُبَارِ عَمُودُ
 بِمُنْخَرِقِ السَّرِبَالِ كَالسَّيْدِ لَا يَنِي .. يَقَادُ لِحَرْبٍ أَوْ تَرَاهُ يَقُودُ
 فَلَوْلَا رِجَالٌ يَا مَنِيعَ رَأْيَتُهُمْ .. لَهُمْ خُلُقٌ عِنْدَ الْجَوَارِ حَمِيدُ
 لَنَالَكُمُ مِنِّي نِكَالٌ وَغَارَةٌ .. لَهَا ذَنْبٌ لَمْ تَدْرِكُوهُ بَعِيدُ
 أَقَلَّ بَنُو الْإِنْسَانِ حَتَّى عَدَوْتُمْ .. عَلَى مَنْ يُثِيرُ الْجَنَّ وَهِيَ هَجُودُ
 أَيَا أَبْرَقِي مَغْنَى بُنْيَنَةٍ أَسْعَدَا .. فَتَى مُقْصِداً بِالشَّوْقِ فَهُوَ عَمِيدُ
 وَقَدْ كَانَ فِي مَغْنَى بُنْيَنَةٍ لَوْ بَدَتْ .. عُيُونٌ مَهَا تَبْدُو لَنَا وَخُدُودُ
 لَيَالِي مَنَا زَائِرٌ مُتَهَالِكٌ .. وَآخِرُ مَشْهُورٍ فَفِيهِ صُدُودُ
 عَلَى أَنَّهُ مَهْدِي السَّلَامِ وَزَائِرٌ .. إِذَا لَمْ يَكُنْ مِمَّنْ يَخَافُ شُهُودُ
 وَقَدْ كَانَ فِي مَغْنَى بُنْيَنَةٍ لَوْ بَدَتْ .. عُيُونٌ مَهَا تَبْدُو لَنَا وَخُدُودُ " 246

أما هجاء العمال وتوعدهم فقد برز ذلك عند مالك بن الريب الذي يهدد الحارث بن حاطب الجمحي عامل مروان بن الحكم، لأنه طلبه وطلب عصابته بعد أن أظهروا شرهم بالناس، فهرب منه وتوعد به بأنه سيقصد له ويقتله، وإذا لم يستطع سيقصد بأولاده حتى ينقم منهم إما بالمدينة أو على مشارفها، فيقول مالك:

"فَإِنْ أَسْطَعُ أَرْخَ مِنْهُ أَنَاسِي .. بِضَرْبَةِ فَاتِكٍ غَيْرِ اعْتَذَارِ

245 الكلابي، ديوان القتال الكلابي، ص 61.

246 طريفي، ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، ج 1، ص 388 - 389.

وإن يُفْلِتَ فإنِّي سوف أَلْقِي .. بنيه في المدينة أو صِرارٍ " 247

وقد تناول صعاليك الأموية قبائلهم بالتهديد والوعيد كما كان عند سابقهم، فقد تناولوا بعض القبائل التي اعتدت عليهم بالتهديد، وكذلك هجاء العمال الذين طلبوهم وتعقبوهم لكي يقضبوا عليهم، ويلقوا بهم في السجن.

وبذلك نجد تشابه بين صعاليك العصر الجاهلي والأموي في توعدهم وتهديدهم لأبناء قبيلتهم أو أبناء قبائل أخرى.

وكان لصعاليك العصر الجاهلي بعض المقطوعات في هجاء وتوعد الصعلوك للصعلوك، ولم يكن هذا النوع موجود عند صعاليك العصر الأموي، وقد استحدث صعاليك العصر الأموي نوعاً من الهجاء والتهديد وهو خاص بعمال الدولة الأموية.

الموضوع	العصر الجاهلي	العصر الأموي
الهجاء والتهديد.	كان التهديد والهجاء لأبناء القبيلة الواحدة أو قبيلة أخرى.	كما كان عند سابقهم غير أنهم استحدثوا تهديداً لعمال الدولة الأموية.

4. 2. 3. مصاحبة حيوان الصحراء :

ونرى في أشعار الصعاليك التشرد في أنحاء القفار الموحشة، حيث يعيش الوحش بعيداً عن البشر، والموت يكمن في أنحاء شعابها، فرافق الصعاليك الحيوان، وعاشوا معها وألفوها.

وأقرب صورة لتشرد الصعاليك ما نجده في عند تأبط شراً والشنفرى في لامية العرب، فيقول يوسف خليف: "كلا الصعلوكين مفارق مجتمعه النظامي حيث يعيش البشر، إلى أعماق الصحراء البعيدة حيث يعيش الوحش، أما تأبط شراً فقد ألفت الوحش لطول ما عاش بينها مسالماً لها، حتى أنست به، واطمأنت

247 الريب، ديوان مالك بن الريب، ص 76.

إليه، وأما صعلوك اللامية فقد وجد في ضواري الصحراء أهلاً له، يستعويض بها عن أهله من البشر، ويجد بينها الأمن والطمأنينة²⁴⁸، يقول تأبط شراً متحدثاً عن نفسه:

"يَبِيتُ بِمَعْنَى الْوَحْشِ حَتَّى أَلْفَنَهُ .. وَيُصَيِّحُ لَا يَحْمِي لَهَا الدَّهْرَ مَرْتَعَا

على غِرَّةٍ أَوْ جَهْرَةٍ مِنْ مَكَانٍ .. أَطَالَ نِزَالَ الْمَوْتِ حَتَّى تَسْعَسَعَا

رَأَيْنَ فَتًى لَا صَيْدُ وَحْشٍ يَهْمُهُ .. فَلَوْ صَافَحَتْ إِنْسَاءً لَصَافَحْنَهُ مَعَا

وَلَكِنْ أَرَبَابَ الْمَخَاضِ يَشْفُقُهُمْ .. إِذَا اقْتَفَرُوهُ أَوْ مُشِيعَا²⁴⁹

ويقول الشنفرى مخاطباً أهله:

"وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ: سَيِّدٌ عَمَلَسَ .. وَأَرْقَطُ زُهْلُولٍ، وَعَرْفَاءُ جَبِيلٍ

هُمْ الْأَهْلُ، لَا مُسْتَوْدَعُ السِّرِّ ذَائِعٌ .. لَدَيْهِمْ، وَلَا الْجَانِي بِمَا جَرَّ يُخَذَّلُ " ²⁵⁰

فالتشرّد جعل الصعاليك لهم صلة قريبة بحيوان الصحراء، فاستطاعوا أن يعرفوا طباعه وعاداته، وشعرهم يتخلله الكثير من الصور لحيوان الصحراء ووحشتها وطيرها وحشراتهما وما يخيل للساري في شعابها من أشباح، وقد ذكر تأبط شراً في بعض شعره أن وحش الصحراء قد ألفتة ولم تعد تخشاه أو تنفر منه، وقد وصف بعض الشعراء الصعاليك الحيوان وصفاً مفصلاً، وهذا يدل على شدة اتصالهم بحيوان الصحراء، فلا يعرف ذلك إلا من اتصل بها اتصالاً قريباً عرف منه طبائعها وتفاصيلها الدقيقة، وقد ألف صعاليك الأموية حيوانات الصحراء ورافقوها، وجعلوها تشاركهم حياتهم كما فعل سابقينهم، وقد كان منهم من يعتقد أنه رافق نمراً في الصحراء يؤاكله.

وعند صعاليك العصر الأموي تميز في هذا الموضوع القتال الكلابي، فقد كان يصف مصاحبتة للنمر وإلفه له، وأنه كان لا يسامره ولا يحادثه إنما كان صامتاً عيناه تتوهج، وكيف أنه كان يصطاد الوعول ويأتي بها إليه، فيأخذ منها ما يشاء يقيم بها رمقه، ثم يطرح الباقي له، ويحكي كيف كانا يشربان سوياً من نقرة في الجب فيها بعض الماء الصافي، فيقول:

²⁴⁸ خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 55-56.

²⁴⁹ تأبط شراً، ديوان تأبط شراً، ص 115-117.

²⁵⁰ الشنفرى، ديوان الشنفرى، ص 59.

" وَلِي صَاحِبٌ فِي الْغَارِ هَذَاكَ صَاحِباً .. هُوَ الْجَوْنُ إِلَّا أَنَّهُ لَا يُعَلَّلُ

إِذَا مَا التَّقِينَا كَانَ جُلَّ حَدِيثِنَا .. صُمَاتٌ وَطَرْفٌ كَالْمَعَابِلِ أَطْحَلُ²⁵¹

تَضَمَّنَتْ الْأَرْوَى لَنَا بِطَعَامِنَا .. كِلَانَا لَهُ مِنْهَا نَصِيبٌ وَمَأْكُلُ²⁵²

فَأَغْلِبُهُ فِي صَنْعَةِ الزَّادِ إِنَّنِي .. أُمِيطُ الْأَذَى عَنْهُ وَلَا يَتَأَمَّلُ

وكَانَتْ لَنَا قُلْتُ بِأَرْضٍ مَضَلَّةٍ .. شَرِيعَتُنَا لِأَيَّتِنَا جَاءَ أَوَّلُ²⁵³ " 254

وأما عبيد بن أيوب العنبري فقد كان مولعاً بتصوير مرافقته للغيلان والحيات والذئاب، فقد أكثر الحديث عنها وعن عيشه معها، ويتحدث عن مصاحبته للوحش والذئب والغول زاعماً أن منها الذكر والأنثى، وأن لونها مخطط كأنه الطرائق التي تزين ثياب الأعراب، فيقول:

" وَحَالَفْتُ الْوُحُوشَ وَحَالَفْتَنِي .. بِقُرْبِ عُهودِهِنَّ وَبِالْبِعَادِ

وَأَمْسَى الذَّنْبُ يَرِصُدُنِي مَحْشَاً .. لِحْفَةِ صُرْبَتِي وَلِضَعْفِ آدِي

وَعُؤْلًا قَفَرَةً ذَكَرٍ وَأُنْثَى .. كَأَنَّ عَلَيْهِمَا قِطْعَ الْبِجَادِ²⁵⁵

ويحكي أنه كان يرى الغول والسعلاة ويصور لنا الفرق بينهما، والسعلاة هي الواحدة من نساء الجن التي تتلون لتفتن المسافرين، وأنه كان يرى الجن ويسمع أصواتهم وعزيفهم في أنحاء الليل، فيقول:

" وَسَاخِرَةٌ مِنِّي وَلَوْ أَنَّ عَيْنَهَا .. رَأَتْ مَا أَلَاقِيهِ مِنَ الْهَوْلِ جُنَّتْ

أَزَلٌّ وَسِعْلَاةٌ وَعُؤْلٌ بِقَفَرَةٍ .. إِذَا اللَّيْلُ وَارَى الْجِنَّ فِيهِ أَرْنَتْ²⁵⁶ "

²⁵¹ صمات: سكوت، المعابل: جمع معبلة وهي النصل الطويل العريض، الأطحل: لون بين الغبرة والبياض بسواد قليل.

²⁵² تضمنت: تكفلت، الأروية: أنثى الوعل.

²⁵³ القلت: نقرة في الجبل يستقنع فيها الماء، مضلة: تضل السالك فلا يهتدي فيها.

²⁵⁴ الكلابي، ديوان القتال الكلابي، ص 77-78.

²⁵⁵ طريفي، ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، ج1، ص 391.

²⁵⁶ طريفي، ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، ج1، ص 387.

وبذلك وجدنا أن التشابه بين صعاليك الجاهلية وصعاليك الأموية مصاحبة حيوان الصحراء ووحشها ومشاركتهما وألفتها، وكذلك وصفها وصفاً دقيقاً والتغني بها في أشعارهم.

الموضوع	العصر الجاهلي	العصر الأموي
مصاحبة حيوان الصحراء.	ألفوا ورافقوا الحيوانات وجعلوها تشارك حياتهم.	ألفوا حيوانات الصحراء ورافقوها وجعلوها تشارك حياتهم كما كان عند سابقهم.

3. 3. الموضوعات التي أهملها صعاليك العصر الأموي:

إن صعاليك العصر الأموي أهملوا بعض الموضوعات الشعرية التي كانت لدى صعاليك العصر الجاهلي، وبذلك انفرد الحديث عن هذه الموضوعات عند صعاليك العصر الجاهلي، كشعر سرعة العدو وشعر المراقب، وسبب قول صعاليك العصر الجاهلي في هذه الأشعار هو الفقر وشدة الجوع على عكس صعاليك العصر الأموي وسبب ذلك اختلاف الأحوال الاقتصادية بين العصرين، فالمجتمع الأموي تنعم بالرخاء إثر الفتوحات الإسلامية، فقد انفرد صعاليك الجاهلية بهذه الميزة عن مجتمعهم بأكمله، وهي ميزة خارقة للعادة.

1. 3. 3. سرعة العدو:

وقد انفرد صعاليك العصر الجاهلي بحديثهم عن سرعة عدوهم لتفردهم بهذه الميزة، وإيمانهم بأنها من الأسباب الرئيسة في نجاتهم من كثير من المهالك، وقد تحدثوا عن سرعة عدوهم معجبين بأنفسهم لتفردهم بهذه الصفة عن سائر الناس ولأنها أنقذتهم من أخطار محققة، فقد كانوا يرون أنهم يملكون القدرة على العدو بسرعة الذي يعجز الناس عنه ²⁵⁷.

وإذا رجعنا إلى أشعارهم ومقطوعاتهم نجد هؤلاء أنهم قد تقننوا في تصوير وتشبيه عدوهم والاعتزاز بهم، وكانت تبدو هذه الميزة بوضوح عند الصعاليك عامة، وعند هذيل خاصة فقد كانوا معظمهم من

²⁵⁷ خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 215-216.

العدائين، ومن أشهرهم: أبو خراش، وصخر الغي، وحبيب الأعم، وعند غير الهذليين الشنفرى، وتأبط شراً، وعمر بن بركة، وحاجز الأزدي.

ومن الصعاليك العدائين الذي ضرب المثل بهم في العدو السليك بن سلكة، فيقال: " أعدى من السليك"، ونجد عدداً من أشعار تأبط شراً تصويراً لسرعة عدوه، فيقول في تصويره لسرعة عدوه أنه من شدة سرعته في العدو يثير الغبار فيكسو سوابق الخيل، ويفوتها بجريه فيقول:

" لَهَا الْوَيْلُ مَا وَجَدَتْ ثَابِتاً .. أَلْفَ الْيَدَيْنِ وَلَا زُمَلاً

وَلَا رَعَشَ السَّاقِ عِنْدَ الْجَرَاءِ .. إِذَا بَادَرَ الْحَمْلَةَ الْهَيْضَلَا²⁵⁸

يُفَوْتُ الْحَيَادِ بِتَقْرِيهِ .. وَيَكْسُو هَوَادِيهَا الْقَسْطَلَا²⁵⁹

وَيَعْتَزُّ النَّفْقَ الْمُسْبِطَ .. وَالْجَابَ ذَا الْعَانَةِ الْمَسْحَلَا²⁶⁰ " 261

وأكثر ما يتحدث عنه الصعاليك شدة العدو مرتبطة بينهم وبين بعض حيوان الصحراء المشهورة بسرعة العدو أو الطير، فنرى صخر الغي يصف شدة عدو صاحبه ويشبّهه بحمار غليظ، فيقول:

" مَعِيَ صَاحِبٌ دَاجِنٌ بِالْغَزَا .. ةَ لَمْ يَكُ فِي الْقَوْمِ وَغَلًّا ضَعِيفَا²⁶²

تَرَى عَدُوَّهُ صُبْحَ إِقْوَائِهِ .. إِذَا رَفَعَ الْمَأْبِضَانَ الْحَشِيفَا²⁶³

كَعَدُوِّ أَقْبَبَ رَبَاعٍ تَرَى .. بِقَائِلِهِ وَنَسَاهُ نُسُوفَا²⁶⁴ " 265

258 الجراء: مصدر جارى، الهیضل: الجماعة من الناس.

259 يفوت: يسبق، الهوادي: من الخيل السابق المتقدم، القسطل: التراب؛ أي يثير في عدوه الغبار فيكسو سوابق الخيل.

260 النفق: الظليم، المسبطر: المسرع الممتد في مشيه، والجاب والمسحل: حمار الوحش، والعانة: الأتان.

261 تأبط شراً، ديوان تأبط شراً، ص 163-164.

262 داجن: معاود مرة بعد مرة، وغلاً: ندلاً،

263 المأبضان: باطن الركبة وباطن المرفق، الحشيف: ثوب خلق.

264 الفائل: عرق يخرج من الورك فيتبطن الفخذ إلى الساق، النسا: عرق في الفخذ ثم يصير إلى الساق ثم إلى الكعب،

نسوف: آثار عض.

265 السكري، شرح أشعار الهذليين، ص 301-302.

وكذلك نرى الشنفري يصف نفسه بأنه حين يعدو لا يعوق قدميه شيء، حتى الحجارة التي تعترض
رجليه تتطاير فيقذ منها الشرر ويقول:

" إذا الْأَمْعَزُ الصَّوَانُ لَأَقَى مَنَاسِمِي .. تَطَايَرَ مِنْهُ قَادِحٌ وَمَقْلٌ²⁶⁶ " 267

فقد كان العدو من أهم الأسلحة الذي اعتمد عليها صعاليك الجاهلية، لطبيعة حياتهم التي أجبرتهم
على اتخاذ سرعة العدو كوسيلة للنجاة من الأعداء، وقد أفاضت الروايات في أحاديث العدائين الصعاليك
من الجاهلية، أما عن صعاليك الأموية فقد لا نجد في الروايات أحاديث عن العدو كما كان عند صعاليك
الجاهلية، وقد وجدنا الدكتور عبد الحليم حنفي يعلل اختفاء هذه الظاهرة.

فيذكر أن حياة الصعاليك في الجاهلية تختلف من حيث الفقر الشديد والرخاء وإن الحاجة الشديدة
في الجاهلية جعلت الصعاليك يقضون كل أو معظم حياتهم في الصحراء، ويعتمدون على إمكانياتهم
الجسدية التي منها العدو، أما صعلوك الأموية فإن كان فقيراً فلا نجد أنه بلغ حد الجوع الذي بلغه صعلوك
الجاهلية، فلم يضطر الصعلوك الأموي إلى بذل ما يبذله الصعلوك الجاهلي للحصول على لقمة العيش،
ولم يضطر إلى استغلال إمكانياته الجسدية²⁶⁸.

وبذلك فإن عدم ظهور أحاديث العدو عند صعاليك الأموية يرجع إلى حياتهم التي اختلفت عن
حياة صعاليك الجاهلية، فقد تحدث صعاليك العصر الجاهلي عن هذه الميزة مقدرين لقيمتها في حياتهم
وأنه لولا سرعة عدوهم لما نجوا من المهالك.

²⁶⁶ الأمعز: المكان الصلب الكثير الحصى، الصوان: الحجارة الملس، المناسم: خف البعير، القادح: الذي تخرج النار
من قدمه، مقل: متكسر.

²⁶⁷ هبة الله بن الشجري، مختارات شعراء العرب، ضبطها وشرحها: محمود حسن زناتي، مصر، مطبعة الاعتماد، ط1،

1925، ج1، ص 20.

²⁶⁸ حنفي، شعر الصعاليك، ص241.

2. 3. 3. شعر المراقب:

وقد تميز شعر الصعاليك في العصر الجاهلي بوصف المراقب، ويقصد بها المراقب المطلّة من شعاب الجبال على شعاب الأودية، وكانت مراقبهم منيعة مرهوبة، يترصدون بها ليل نهار، وقد عني صعاليك الجاهلية بالمراقب لأنها كانت حصونهم المنيعة، وقلاعهم المطلّة ومواطنهم بعد أن قطعوا صلتهم بالأوطان، فكانوا يترصدون لضحاياهم فوق المرتفعات، وينتظرون الفرصة الملائمة لمهاجمتهم حتى إذا سح الصيد انقضوا انقضاض الصواعق على الصيد²⁶⁹.

وكان أكثر ما يتحدثون عن تربصهم فوق المراقب حين يقبل الليل ليكون أمعن في التخفي، وأدل على جرأتهم وقوة قلوبهم، ويختار الصعلوك مراقبة شاهقة الارتفاع، يرى كل الأماكن المحيطة به ويضمن عدم وصول الأعداء له²⁷⁰.

ف نجد الشنفرى ممن وصف مرقبته بأنها عالية لا يستطيع أن يبلغها الصياد الماهر الذي يخرج بكلايه للصيد، ويصف وأنه قضى فيها الليل بظلامه الحالك عاقداً ذراعيه أمامه ثابتاً عليها، وليس بمطمئن يستدير ويلتف بعضه على بعض كأنه الحيات، فيقول:

" وَمَرْقَبَةٍ عَنقَاءَ يَقْصُرُ دُونَهَا .. أَخُو الضَّرْوَةِ الرَّجُلُ الْخَفِيُّ الْمُخَفَّفُ²⁷¹

نَمِيْتُ إِلَى أَعْلَى ذُرَاهَا وَقَدْ دَنَا .. مِنَ اللَّيْلِ مُلْتَفُّ الْحَدِيقَةِ أَسَدَفُ

فَبِئْتُ عَلَى حَدِّ الذَّرَاعِينَ أَحَدَباً .. كَمَا يَتَطَوَّى الْأَرْقُمُ الْمُتَعَطِّفُ

قَلِيلٌ جَهَازِي غَيْرُ نَعْلَيْنِ أَسَحَقْتُ .. صُدُورُهُمَا مَخْصُورَةٌ لَا تُخَصِّفُ²⁷²

وَمِلْحَقَةٍ دَرَسٍ وَجَرَدٍ مُلَاءَةٍ .. إِذَا أَنَهَجْتُ مِنْ جَانِبٍ لَا تَكْفُفُ²⁷³ " 274

²⁶⁹ غازي طليعات، عرفان الأشقر، تاريخ الأدب العربي: الأدب الجاهلي، دار الإرشاد بحمص، ط1، 1992، ص 229.

²⁷⁰ خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 187-188.

²⁷¹ مراقبة: مرتفع من الهضاب ونحوها، عنقاء: طويلة العنق، الضروة: من ضرا بمعنى استخفى، الرجل: الساعي على رجله.

²⁷² أسحقت: بليت، مخصورة: دقيقة الوسط، لا تخصف: لا تقبل الخرز.

²⁷³ الجرد: البالي، أنهجت: بليت.

²⁷⁴ الأصفهاني، الأغاني، ج21، ص135.

أما تأبط شراً فيصور مرقبته أنها مرتفعة شاهقة كأنها تثبُّ إلى السماء، وأنها حادة شاهقة كأنها معلقة في الهواء فوق المراقب الأخرى، يشبها بالعجوز عليها ثياب بالية، وأنه ينهض إليها في منتصف الليل ليبدأ تنفيذ خططه، فيقول:

"وَمَرْقَبَةٍ، يَا أُمَّ عَمْرٍو طِمْرَةٍ .. مُدْبَذِبَةٍ فَوْقَ الْمَرَاقِبِ عَيْطَلٍ²⁷⁵

نَهَضَتْ إِلَيْهَا مِنْ جُثُومٍ كَأَنَّهَا .. عَجُوزٌ عَلَيْهَا هِذْمِلٌ ذَاتُ خَيْعَلٍ²⁷⁶ " 277

ويتحدث تأبط شراً أنه صعد إلى المرقبة بنعلٍ ممزقة بالية قد أطرقها بمثلها لضعفها وتقطعها وبلائها، فيقول:

"بِشْرْتَةٍ خَلَقَ، يُوقَى الْبَنَانُ بِهَا .. شَدَدْتُ فِيهَا سَرِيحاً بَعْدَ إِطْرَاقٍ²⁷⁸ " 279

وأما عروة بن الورد فقد كانت مرقبته تختلف عن باقي مراقب الصعاليك، فقد كان يقف ربيعاً، ويبعث أحداً ليرقب لهم الطريق فوق المرتفعات، وأنه يقف فوق المرقبة لا يتحرك، ثابتاً كأنه غرس فوقها، ويرمي ببصره في الأنحاء وقد أناخوا ونزلوا للطبخ، وهو ينظر في الأرض الواسعة التي لا جبل فيها، فيقول:

"إِذَا مَا هَبَطْنَا مِنْهَلًا فِي مَخُوفَةٍ .. بَعَثْنَا رَبِيبًا فِي الْمَرَايِ كَالْجَذْلِ²⁸⁰

يُقَلِّبُ فِي الْأَرْضِ الْفَضَاءَ بِطَرْفِهِ .. وَهَنْ مَنَاخَاتٍ، وَمِرْجَلُنَا يَغْلِي " 281

²⁷⁵ طمرة: مرتفعة شاهقة كأنها تثبُّ إلى السماء، مذذبة: حادة شاهقة كأنها معلقة في الهواء فوق المراقب الأخرى، العيطل: الطويلة السامقة.

²⁷⁶ من جثوم: أي من نصف الليل، الهدمل: الثوب الخلق، الخيعل: قميص بلا أكمام.

²⁷⁷ تأبط شراً، ديوان تأبط شراً، ص 181.

²⁷⁸ الشرثة: النعل الخلق المتهرئ، السريح: الشريط من الجلد المجدول تشد به النعال، الإطراق: يجعل تحت النعل مثلها إذا بليت.

²⁷⁹ تأبط شراً، ديوان تأبط شراً، ص 140.

²⁸⁰ المرابي: أي بعثنا ربيعاً نراه في مربئه منتصباً كأنه جذل، والجذل: أي كأنه أصل شجرة لا يبرح موضعه.

²⁸¹ ابن السكيت، شرح ديوان عروة بن الورد، ص 116-117.

وفيما سبق من نماذج لشعر المراقب التي كانت حديث صعاليك الجاهلية، أما عن صعاليك الأموية فإنهم وإن تحدثوا عن الأماكن والصحراء والجبال إلا أنهم لم يتحدثوا عن المراقب كما فعل سابقهم من صعاليك الجاهلية، فإن تفسير إهمالهم شعر المراقب هو أن الصعلوك الأموي لم يكن يقوى على ارتداد الأماكن شاهقة الارتفاع إلا الذين اوتوا نشاطاً غير عادي كالعذائين، أما الصعلوك الجاهلي فقد تميز بصفة سرعة العدو كما ذكرنا سابقاً، فقد أهمل صعاليك الأموية هذا الموضوع من الشعر.

4. 3. الموضوعات الشعرية المستحدثة في العصر الأموي:

لقد رافق خروج الصعاليك في العصر الأموي عن مجتمعهم خروجاً فنياً أبدع الشعراء الصعاليك فيه، فقد سعوا إلى التعبير عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية من حولهم، وإلى التعبير عن الحياة التي يعيشونها بمختلف مظاهرها، فاستحدثوا موضوعات تواكب التغيير في عصرهم، والتي لم تكن عند صعاليك العصر الجاهلي، فعبروا بها عما يحيط بهم في حياة الصعلكة والتشرد من خلال موضوعات جديدة نتيجة الظروف السياسية والثورات الفتن التي استجدت في ذلك العصر.

وبذلك لا بد لنا من الإشارة إلى أنه لم يبق شعر الصعاليك في العصر الأموي يتضمن فقط الموضوعات التي كانت لدى الصعاليك في العصر الجاهلي ذات الطابع التقليدي، بل كانوا يمتلكون موضوعات مستحدثة وجديدة، وسنحاول الوقوف هنا على أبرز الموضوعات التي طرقها شعراء صعاليك العصر الأموي منها:

- وصف السجون وحياتها.
- مدح العمال والخلفاء والمتمردين.
- الحنين إلى الاستقرار.
- التوبة والاعتذار والاستغفار.

وسنتناول بقليل من التفصيل ما يتعلق بكل موضوع من هذه الموضوعات محاولين الكشف عن أسباب استحداث هذه الموضوعات والكشف عن مضمونها.

1. 4. 3. وصف السجون وحياتها:

وكان وصف السجون وحياتها من أهم الموضوعات المستحدثة في العصر الأموي، الذي نشأ نتيجة الحياة الاجتماعية والسياسية القائمة في العصر الأموي، فقد كان الصعاليك في العصر الجاهلي يعيشون في مجتمع يسوده حكم القبيلة، أما الصعاليك في العصر الأموي عاشوا في مجتمع تحكمه دولة لها قوانينها ونفوذها، فأصبح من واجب السلطة الأموية أن تحمي الناس وتحقق لهم الطمأنينة والأمان في حياتهم، وأن تتعقب كل مفسد ولص حتى تعثر عليه وتنزل به ما يستحق من العقاب²⁸².

وقد كان صعاليك الأموية قد احترفوا الأغارة والسلب والنهب وقطع الطرق وسلب أموال الدولة، وقد اضطروا في بعض الأحيان إلى قتل بعض الناس أو العمال لإنجاح غاراتهم وغزواتهم، لذلك عدتهم الدولة من المفسدين في الأرض والعابثين بالنظام، والخارجين على القانون، وأخذت تطاردهم وتطلبهم، وتفرض المكافآت الكثيرة لمن يساعد في القبض عليهم، فإذا وقع في قبضتها أحد قاسى أشد ألوان العذاب والتنكيل.

وسبب ارتفاع عدد السجناء والأسرى من الصعاليك الأمويين هو أن الدولة الجديدة فرضت وجودها على جميع البلاد الإسلامية، فكانت تحاسب الخارجين على القوانين، مما لم يكن متوفراً في العصر الجاهلي.

وكان الظن أن تختفي حركة الصعلكة بعد تحول العرب من عهد القبائل والعصبيات القبلية، التي لا تخضع لهيئة حاكمة موحدة، أو إلى عهد الدولة المنظمة، والتي تحكمها سلطة واحدة، وقد استمرت هذه الحركة مع توافق بما اتصف به صعاليك الجاهلية، فجميعهم كانوا فقراء تشردوا في الصحراء، كما كانوا أيضاً أقوياء أولي بأس شديد لا يرهبهم الموت، فقد آمنوا بالقوة كشريعة لهم، اتخذوا الغزو والإغارة وسيلة لهم، والسلب والنهب غايتهم.

وبذلك فإن الصعلكة لم يتغير مفهومها ومعناها عما كان عليه في المجتمع الجاهلي، بل كل ما هنالك فروق في بعض النواحي نتيجة تغير المجتمع من عصر إلى عصر، ومن هذه الفروق أن بعض طوائف صعاليك الجاهلية قلت في المجتمع الأموي، مثل طائفة الأغربة السود، وأن بعضهم أخذهم الخوف

²⁸² مروة، الصعاليك في العصر الأموي، ص 110.

والذعر مما كان يتوعد به الخلفاء والعمال من العقاب، فتوغل الصعلوك الأموي بسبب ذلك في المناطق النائية من الفيافي والقفار، ونتيجة ذلك ظهر عنده شعر الحنين إلى الأهل والوطن والأصحاب والرغبة في الاستقرار، وظهر كذلك شعر السجون عند من ألقى القبض عليه فيصور ما عاناه الصعلوك من ألم السجون وعذابها²⁸³.

وممن قبضت عليه السلطة الأموية مالك بن الربيع، وأبو النشاش التميمي، وجحدر العكلي، والقتال الكلابي، وشظاظ الضبي، وعبد الله بن الحجاج الثعلبي، ونال كل منهم جزاءه، فكان الجزاء إما بالحبس أو بالجلد أو بالقتل، كل حسب ذنبه²⁸⁴.

وقد وصف صعاليك الأموية السجون والحراس والأبواب، وألوان التعذيب، وكيف كانت تحتوي على مسجونين اختلفت ذنوبهم وأقيموا في السجون لا يخرجون منها.

ويقول القتال الكلابي وهو في السجن عندما خاف أن تدركه المنية وهو مسجون لا يرى دياره، وقد كان يدرّب نفسه على تحمل الشدائد والمصائب، وقد كان يرجو من حارسه أن يفك قيده ويخرجه من السجن لو ساعة واحدة ليتمتع و يرتاح قليلاً، ولكن الحارس لم يستجب لندائه بل شد قيده مقطباً حاجبيه، فكان يجره بعنف وهو مقيد سلسلته بقوة في حلقة مربوطة بعمود وجسده تلتخ بالدماء، فيقول القتال:

"ولما رأيتُ البابَ قد حِيلَ دُونَهُ .. وَخَفْتُ لِحَاقاً مِنْ كِتَابٍ مُؤَجَّلٍ

رَدَدْتُ عَلَى الْمَكْرُوهِ نَفْساً شَرِيسَةً .. إِذَا وَطَّنْتُ لَمْ تَسْتَقْدِ لِلتَّنَدَلِ

وكالِيُ بَابِ السَّجَنِ لَيْسَ بِمُنْتَهَى .. وَكَانَ فِرَارِي مِنْهُ لَيْسَ بِمُؤْتَلِي

إِذَا قُلْتُ رَفَّهْنِي مِنَ السَّجَنِ سَاعَةً .. تَذَارِكُ بِهَا نُعْمَى عَلَيَّ وَأَفْضَلِ

يَشُدُّ وَثَاقِي عَابِساً وَيَتَلْنِي .. إِلَى حَلَقَاتٍ فِي عَمُودٍ مُرْمَلٍ²⁸⁵ » 286

²⁸³ واضح الصمد، السجون وأثرها في الآداب العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1995، ص 175-191.

²⁸⁴ عطوان، الشعراء الصعاليك في صدر الإسلام والعصر الأموي، ص 131-132.

²⁸⁵ يتل: يجز بعنف، مرمل: ملطخ بالدم؛ وذلك إيماء إلى التعذيب الذي كان يصيبه على يديه.

²⁸⁶ الكلابي، ديوان القتال الكلابي، ص 75-76.

ولما حبس مالك بن الريب بمكة في سرقة كان يعاني أشد الأسى لما كان يلاقيه في حبسه وبما ينزل عليه الحارس من البلاء، فكان يقول:

" أتلقُ بالريب الرفاقُ، ومالك .. بمكة في سجنٍ يُعنيه راقبُه " 287

صور الشعراء السجون في شعرهم وأدوات التعذيب القاسية، ورسوموا صورة السجون المظلمة ومعاناتهم وما لاقوه من عذاب السجانين لهم، وما قاسوه من الحنين والشوق والألم، والإحساس بالذل وكذلك الرجوع إلى الله لما يغلب عليهم من شعور بالخوف والاضطراب.

والناظر في أشعار الصعاليك يرى أن أغلبهم قبضت عليهم الدولة الأموية وأدخلتهم السجن لجنايات اقترفوها، ومنهم مالك بن الريب، وأبو النشاش التميمي، وجحدر المحرزي، ويعلى الإشكري الأزدي، والسمهري العكلي، القتال الكلابي، وعبيد الله بن الحر الجعفي، وقد نال كل منهم جزاءه كل حسب ذنبه.

وبذلك قد استطاع شعراء صعاليك العصر الأموي أن يصوروا لنا ما لاقوه من العذاب الشديد في السجون التي سجنوا بها، فجاء شعرهم تعبيراً صادقاً لما لاقوه من الألم والتعذيب والإهانة.

2. 4. 3. مدح العمال والخلفاء والمتمردين:

وقد استحدث الصعاليك في أشعارهم مدح العمال والخلفاء، فكانت لديهم قصائد معدودة اضطرتهم الظروف إلى نظمها، فلم يكن همهم منصباً كما كان حال شعراء المديح، إنما يقدمونها إليهم إثباتاً لحسن سيرتهم وطلباً لرضاهم عنهم، واستعطافاً لهم خوفاً مما قد يوقعونه عليهم من العقاب، وإما تنويعاً بالعصاة والمتمردين.

ومثل ذلك ما قصده طهمان بن عمرو الكلابي حين مدح عبد الملك بن مروان، وكان نزل بخمار، وشرب عنده، ثم سرق منه كل أمواله، فاستغاث الخمار ورفع أمره إلى الوليد بن عبد الملك، فقرر أن يقطع

287 الريب، ديوان مالك بن الريب، ص 69.

يده، فأنشأ قطعتين، قطعة مدح بها الوليد، وقطعة مدح بها عبد الملك، يستسمح بها عبد الملك، ويرجو منه ألا يقطع يده، فيقول:

"يَدَيَّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أُعِيدُهَا .. بِحَقْوَيْكَ أَنْ تُلْقَى بِمُلْقَى يَهِينُهَا
فَقَدْ كَانَتْ الْحَسَنَاءُ لَوْ تَمَّ شَبْرُهَا .. وَلَا تَعْدَمُ الْحَسَنَاءُ عَاباً يُشِينُهَا
وَإِنَّكَ مَسْئُولٌ بِحُكْمِكَ فِي يَدَيَّ .. عَلَى حَالَةٍ مِنْ رَبَّنَا سَتَكُونُهَا
وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَكَانَتْ حَبِيبَةً .. إِذَا مَا شِمَالِي فَارَقَتْهَا يَمِينُهَا
وَإِنَّ شِمَالاً زَالَتْهَا يَمِينُهَا .. لَبَاقٍ عَلَيْهَا فِي الْحَيَاةِ حَنِينُهَا
وَقَدْ جَمَعْتَنِي وَابْنَ مَرْوَانَ حُرَّةً .. كِلَابِيَّةً فَرَعَ كِرَامَ غُصُونُهَا " 288

3. 4. 3. الحنين إلى الاستقرار:

ونجد أن الصعاليك في العصر الأموي انشدوا أشعار في الحنين إلى الاستقرار، فكان لديهم حنيناً زائداً إلى الاستقرار بعد حياة التشرد والمطاردة، والابتعاد عن الأوطان والأهل والأحبة، وكراهة شديدة لحياة التشرد والغربة واحتراف اللصوصية.

فإن لوعة الشوق والحنين إلى أهلهم وزوجاتهم وأبنائهم والقبيلة والمكان تظهر في أشعارهم، مدفوعون بالحنين إلى الحياة التي كانوا يعيشونها قبل التيه والتشرد في الفيافي، وإلى تذكر شيمهم الفاضلة من الكرم وإقراء الضيف ومواقف الشجاعة في المواجهات والنزاعات المختلفة، ومن علاقات عاطفية انتهت كلها بسبب تشردهم في الفيافي، أو لوقوعهم بيد السلطة ودخولهم إلى السجون وتذوق عذابها.

ولعل استحداث موضوع الحنين مرده إلى سببين: هما التشرد والسجن معاً، وبسبب ما عاناه صعاليك الأموية من مشاعر حنين طاغية فعبروا عنها في أشعارهم، ولاسيما بسبب السجن الذي كان

288 طريفي، ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، ج1، ص 353 - 354.

يختلف بشكل كبير عن التشرد، فقد كان جديداً في ذلك العصر، وأنه لم تكن وراءه بواعث اقتصادية واجتماعية فحسب، كاللصوصية والفتك، بل وجدت بواعث سياسية أيضاً²⁸⁹.

فمالك بن الربيع أقسم أن يترك حياة التلصص وينفصل عن أصدقاءه منهم أبو حردبة المازني، بعد أن قضى معهم شطراً من عمره في قطع الطريق، مبتعداً عن وطنه وأهله، واعتزم على ترك اللصوصية والصعلكة عندما شعر بملل تلك الحياة، وغلبه الشوق إلى زوجته، وإلى حياة الهدوء والطمأنينة بجانبها وبجانب ابنته، لأن طيفها كان يسري إليه، مذكراً له بحق الزوجية عليه²⁹⁰، فيقول:

"عليّ دماء البُذُن إن لم تُفارقني .. أبا حَرْدَبَ يوماً وأصحاب حَرْدَبِ

سَرَت في دُجَا ليلٍ فأصبح دونها .. مَفاوِزُ جمران الشَّريفِ وغُرب

تطالع من وادي الكلابِ كأنها .. وقد أنجذت منه فريدةً دبدبٍ " ²⁹¹

وكذلك نجد في شعر عبيد بن أيوب حين يخاطب محبوبته، فيعبر عن ذلك بذكر لأطعائها المرتحلة التي تتراءى له ويصفها وهي تقطع الرمال وتجوز القفار، فيقول:

" انظُرْ فَرْنَقُ جَزَاكَ اللهُ صَالِحَةً .. رَأَدَ الضُّحَى اليَوْمَ هَلْ تَرْتَادُ أَطْعَانَا

يَعْلُونَ مِنْ عَالِجِ رَمَلًا وَيَعْسِفُهُ .. أَخُو رِمَالٍ بِهَا قَدْ طَالَ مَا كَانَا

إذا حَبَا عَقْدٌ نَكَبْنَ أَصْبَعُهُ .. واجْتَبَيْنَ مِنْهُ جَمَاهِيرًا وَغِيْطَانَا " ²⁹²

وقد كانت غالبية أبيات الحنين لدى هذه الطائفة من الشعراء تظهر من خلالها الظواهر الطبيعية، كالحوانات الأليفة مثل الطباء والطيور والزواحف، والجبال والبرق والآبار.

²⁸⁹ محمود، الإبداع والاتباع في أشعار فتاك العصر الأموي، ص46.

²⁹⁰ مروة، الصعاليك في العصر الأموي، ص117.

²⁹¹ الربيع، مالك بن الربيع، ص 72.

²⁹² طريفي، ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، ج1، ص412.

فكاد يلتقي هؤلاء الشعراء مع من سبقهم في العصر الجاهلي، لكن الاختلافات في أشعار صعاليك الأموية كانت بسبب طبيعة حياة شعرائها الصعاليك الذين تشردوا أو قضوا جزءاً من حياتهم داخل السجون البعيدة عن ديارهم أو القرية منها ²⁹³.

ولعل أبرز معاني الحنين إلى الأهل والأحباب هو ما أظهره الشعراء من مشاعر الحنين بسبب الابتعاد عن ديارهم وديار أبعد بكثير من الديار التي كان يعرفها صعاليك العصر الجاهلي، وذلك بسبب اتساع رقعة الدولة الأموية وامتداد أطرافها منذ عصر صدر الإسلام، أو ما أطلقه الصعاليك من مشاعر الحنين في شعرهم من داخل السجون نتيجة لمعاناتهم من ظروف القاسية حتى غدا موضوعاً حديثاً في عصرهم.

فالحنين الخارج من السجون يختلف أمره، لأن السجون لم تكن معروفة بأشكالها وأساليب التعامل في داخلها قبل العصر الأموي، وفي أشعار القتال الكلابي، وطهمان بن عمرو الكلابي، والمرار القفيسي، ويعلى الأحول، والخطيم المحرزي، يظهر هذا النوع من الأشعار ²⁹⁴.

والقتال الكلابي كان محبوساً في سجن المدينة في أيام الخليفة مروان بن الحكم ويحن إلى أميمة، فكان ينظر إلى الشمس قبيل ارتفاعها في الأفق، فيقول أنستُها بالأيام أي رأى تلك الظُّعن التي أظهرها له خياله في الليل عندما أبرز له بعض معالم جبل سلع أمامه، وأن خيال محبوبته التي يبعده عنها وجوده في السجن لا يفارقه، وقد كان مثلاً بالحنين والأسى، وقد كانت حالته النفسية في سجن المدينة أشد انفجاراً، لثقل ما يعانيه ويكابه، وقد كان يتمنى ويطلب من حارس السجن أن يخرج له ولو ساعة، فيقول:

" ألا حبذا تلك الديار وأهلها ... لو أن عَذَابِي بالمدينة يَنْجَلِي

برزتُ بها من سِجْنِ مَروانَ غُدوةً ... فَأَنْسَتْهَا بِالْأَيامِ لَمَّا تَحَمَّلِ

وَأَنْسْتُ حَيًّا بِالْمِطَالِي وَجَامِلاً ... أَبَابِيلَ هَطَلَى بَيْنَ رَاعٍ وَمُهِمِلٍ ²⁹⁵

²⁹³ محمود، الإبداع والاتباع في أشعار فتاك العصر الأموي، ص 49.

²⁹⁴ محمود، الإبداع والاتباع في أشعار فتاك العصر الأموي، ص 51.

²⁹⁵ المطالي: أرض واسعة من بلاد أبي بكر بن كلاب، جاملاً: القطيع من الجمال، هطلى: المهمله وجاءت الإبل هطلى أي جماعات في تفرقة.

ومُرِد على جُرْد يسارٍ لمجسٍ ... كرامٍ بأيديهم مَوَارِنُ دُبُلٍ²⁹⁶

بَكِيْتُ بِخُلَصَى شَنَّةً شَدَّ فَوْقَهَا ... على عَجَلٍ مُسْتَخْلَفٍ لم تَبَلِّ²⁹⁷

على شَارِفٍ تَعْدُو إِذَا مَالَ صَفْرُهَا ... عَسِيرِ الْقِيَادِ صَعْبَةٍ لم تُذَلِّلْ²⁹⁸

جَدِيدٍ كُلاهَا مُنْهَجَّ حَجَرَاتُهَا ... فللماءِ سَحٌّ من طَبَابٍ مَشْلُشٍ²⁹⁹

وَشُبَّتْ لَنَا نَارٌ لِلِيلَى شِيَاْفَةً ... يُذَكِّي بَعْدَ جَمْرِهَا وَقَرْنُفَلٍ

أَقُولُ لِأَصْحَابِي الْحَدِيدِ تَرَوُّوْهَا ... إِلَى نَارٍ لَيْلَى بِالْعُقُوبَيْنِ نَصْطَلِي

يُضِيءُ سَنَاها وَجَهَ لَيْلَى كَأَنَّمَا ... يُضِيءُ سَنَاها وَجَهَ أَدْمَاءِ مُغْزَلٍ

غَلَا عَظْمُهَا وَاسْتَعْجَلَتْ عَنْ لَدَانِهَا ... وَشُبَّتْ شَبَاباً وَهِيَ لَمَّا تَرَبَّلِ³⁰⁰

بَدَتْ بَيْنَ أَسْتَارٍ عَشَاءٍ يَلْفُهَا ... تَتَنَزَّعُ أَرْوَاحُ جَنُوبٍ وَشَمَالٍ

يَكَادُ بِأَتَقَابِ الْيَلْنُجُوجِ³⁰¹ جَمْرُهَا ... يُضِيءُ إِذَا مَا سِتْرُهَا لم يَجَلِّ

وَمِنْ دُونِ حَوْثٍ اسْتَوْقَدَتْ هُضْبُ شَابَةٍ ... وَهُضْبُ تَعَارٍ كُلُّ عَنَقَاءٍ عَيْطَلٍ³⁰²

يُعْغِي الْحَمَامُ الْوَرَقُ فِي قُدْفَاتِهِ ... وَيُحَرِّزُ فِيهَا بَيَضَهُ كُلُّ أَجْدَلٍ³⁰³

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْبَابَ قَدْ حِيلَ دُونَهُ ... وَخَفْتُ لِحَاقًا مِنْ كِتَابٍ مُؤَجَّلٍ

رَدَدْتُ عَلَى الْمَكْرُوهِ نَفْسًا شَرِيْسَةً ... إِذَا وَطِنْتُ لَمْ تَسْتَقِدْ لِلتَّنْزِلِ

وَكَالِي بَابِ السَّجَنِ لَيْسَ بِمُنْتَهَى ... وَكَانَ فِرَارِي مِنْهُ لَيْسَ بِؤْتَلِي

²⁹⁶ الجرد: الخيل، موارن: القناة اللينة تتخذ من المران، ذبل: رماح.

²⁹⁷ خلصى: اسم موضع، الشنة: الخلق من كل آنية صنعت من جلد، المستخلف: المستسقي.

²⁹⁸ الشارف: الناقة الهمة، الضفر: حزام الرجل.

²⁹⁹ الطبابة: الجلدة التي تجعل على طرفي الجلد في القربة، شلش: يقطر منه الماء متتابعاً.

³⁰⁰ غلا عظمها: سمت، تنربل: يربو جسمها.

³⁰¹ الأتقاب: الإضاءة، اليلنوج: عود الطيب يتبخر به.

³⁰² شابة: جبل بنجد، تعار: جبل في ديار عامر، العنقاء: الهضبة الطويلة المرتفعة وكذلك العيطل.

³⁰³ القذفات: ما أشرف من رؤوس الجبال، يحرز: يمنعها من أن تنال، الأجدل: النسر.

إِذَا قُلْتُ رَفَّهْنِي مِنَ السَّجَنِ سَاعَةً ... تَذَارَكَ بِهَا نُعْمَى عَلَيَّ وَأَفْضَلُ" ³⁰⁴

4. 4. 3. التوبة والاعتذار والاستغفار:

كان شعورهم وإحساسهم بالذنب نتيجة مخالطة الدين الإسلامي نفوس بعض الصعاليك، وتذوقهم لذة الإيمان بالله، وتأثرهم بالتشريع الديني وحكمته، وقد تاب بعض الصعاليك في العصر الأموي وأتابوا، وندموا على أعمالهم السيئة، وأخذوا يدعون الله ويستغفرونه كي لا يدخلهم النار، واستولت عليهم مشاعر الندم في آخر حياتهم، بعد أن تقدم بهم العمر، ومضوا يفكرون في الثواب والعقاب، وإحساسهم بالندم والخوف من عذاب الله، متضرعين إلى الله بأن ينجيهم من العقاب الشديد، وأن يعفو ويغفر لهم.

فقد وُجه صعاليك العصر الأموي بالدين الإسلامي الذي كان يوضح لهم أن الصلعة جريمة نكراء ذات عقوبات صارمة، وكان للمجتمع أيضاً دور في توجيه الصعاليك واستنكار أفعالهم، فكان حينئذ إحساسهم بالذنب والندم، وتمثل هذا الإحساس في شعورهم عن الاستغفار والتوبة، وظهر في خوف شديد تجاوزوا فيه الخوف المألوف في حياة الصعاليك، وكان أكثر ما يظهر هذا النوع من الشعر عن عبيد بن أيوب الذي بلغ فيه حد الوهم ³⁰⁵.

وكان عبيد بن أيوب يناجي الله تعالى طامعاً في التوبة والمغفرة، وينطلق من روحه المفرطة الهلع، فيخاطب الله تعالى بعقلٍ واعٍ ومتماسك، ويتخطى عواطفه وأحاسيسه البائسة، وينطلق منها وبتأثيرها الشديد المرارة في أعماق نفسه، قائلاً:

" يَا رَبِّ قَدْ حَلَفَ الْأَعْدَاءُ وَاجْتَهَدُوا .. إِيْمَانَهُمْ أَنَّنِي مِنْ سَاكِنِي النَّارِ

أَيُحْلِفُونَ عَلَى عَمِيَاءٍ وَيَحْمُهُمْ .. مَا عَلِمَهُمْ بِعَظِيمِ الْعَفْوِ غَفَّارٍ

إِنِّي لِأَرْجُو مِنَ الرَّحْمَنِ مَغْفِرَةً .. وَمِنَّةً مِنْ قِوَامِ الدِّينِ جَبَّارٍ " ³⁰⁶

³⁰⁴ الكلابي، ديوان القتال الكلابي، 73 - 76.

³⁰⁵ حنفي، شعر الصعاليك، ص 424 - 425.

³⁰⁶ طريفي، ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، ج1، ص 396 - 397.

ثم يصل إلى حالة انقطاع إلى الله تعالى، ليعبر عن حالة اطمئنان نفسي من قبول الله تعالى توبته واعتذاره، وكذلك تحقيق الأمان الروحي بعد حالة الخوف والهلع³⁰⁷، فيقول:

" أنا الغلامُ عَتِيقُ اللَّهِ مُبْتَهِّلٌ .. بِتَوْبَةٍ بَعْدَ إِحْلَاءٍ وَإِمْرَارٍ

خُلِّيتُ بِأَبَاتٍ جَهْلٍ كُنْتُ أَتَّبِعُهَا .. كَمَا يُودَّعُ سَفَرٌ عَرَصَةَ الدَّارِ " 308 " 309

فكان عبيد بن أيوب خائفاً من العذاب ولا يجد ما يهدئ من روعه وخوفه إلا التوجه إلى الله تعالى والتوبة، معتذراً عما اقترَف من الذنوب، طامعاً في عفو الله ورضوانه، فيقول³¹⁰:

" يا رَبِّ عَفْوِكَ عَنْ ذِي تَوْبَةٍ وَجَلٍ .. كَأَنَّهُ مِنْ حِذَارِ النَّاسِ مَجْنُونٌ

قَدْ كَانَ قَدَّمَ أَعْمَالاً مُقَارِبَةً .. أَيَّامَ لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ وَلَا دِينٌ " 311

وهذا مالك بن الريب يرثي نفسه بقصيدة قالها قبل موته بسنة، ويصف بها نفسه بعد ما كان فيه من الفتك والضلالة والتصعلك تاب وأصبح في جيش المسلمين، فيقول:

" لقد كان في أهل الغضا لو دنا الغضا .. مَزَارٌ وَلَكِنْ الغضا ليس دانيا

ألم ترني بعثت الضلالة بالهدى .. وأصبحت في جيش ابن عقان غازيا

وأصبحت في أرض الأعادي بعدما .. أراني عن أرض الأعادي قاصيا " 312.

³⁰⁷ محمود، الإبداع والاتباع في أشعار فتاك العصر الأموي، ص 66 - 67.

³⁰⁸ بابات جهل: طرق ووجوه جهل، عرصة الدار: ساحتها.

³⁰⁹ طريفي، ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، ج1، ص397.

³¹⁰ عطوان، الشعراء الصعاليك في صدر الإسلام والعصر الأموي، ص 147 - 148.

³¹¹ طريفي، ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، ج1، ص 412 - 413.

³¹² الريب، ديوان مالك بن الريب، ص88.

الخاتمة

كانت البيئة التي عاش فيها الصعاليك منذ العصر الجاهلي وما فيها من شدة وقسوة واختلاف الطبقات في مجتمعهم والفروقات في العيش والكسب سبباً في ظهور هذه الطائفة، فإن الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي والعصر الأموي ثاروا ضد الفقر والظلم والنظام الاجتماعي المتعسف، وخرجوا على أعراف القبيلة والسلطة والقوانين، وشهروا سيوفهم ضد الظلم، وعبروا عن ذلك بأشعارهم، فكانت غايتهم في العصرين واحدة، وقد كان في شعر الصعاليك تصوير لملامح المجتمع الجاهلي والأموي بما فيه من أمور سياسية واجتماعية واقتصادية.

لقد تمرد الصعاليك الجاهلية على البناء الفني للقصيدة الجاهلية الأم، فجاء شعرهم مقطوعات قصيرة تعبر عن السرعة التي عاشها الصعاليك، كذلك التخلي عن المقدمات الطللية، والالتزام بالوحدة الموضوعية، وكذلك التزم صعاليك الأموي بنمط البناء الفني الذي كان لدى سابقهم، لأن حياتهم لم تسمح لهم بإطالة أشعارهم والتجويد والتنميق.

إن حياة الصعاليك منذ نشأتهم كانت مليئة بالحوادث والمغامرات فكانت أشعارهم تحوي كثيراً من قيم أخلاقهم الحميدة من كرم وشجاعة وجراً، وكذلك وصفاً لحياتهم وتشردهم في الصحراء ومصاحبتهم الحيوان، وقد كان الشعراء الصعاليك غير ملتزمين بالمقدمات الطللية والغزلية، ووصف الرحيل، وكان أكثر شعرهم مقطوعات لا قصائد كاملة، ولعل سبب ذلك إلى أنهم أصحاب سرعة وخفة في الحركة وعدم استقرار، ولم يألّفوا في أشعارهم التنميق والزخرف فابتعدوا عن الصنعة اللفظية في شعرهم فجاءت مقطوعاتهم معبرة عن حياتهم الواقعية.

وكذلك عبر صعاليك العصر الجاهلي عن مغامراتهم في موضوعات أشعارهم التي عندما قرأناها وجدنا أن أحداث حياتهم مليئة بالبسالة والمخاطر، وكلامهم عن صحبة حيوان الصحراء وألفتهم إياها وعن فقرهم وتشردهم، وكذلك احتذى صعاليك العصر الأموي بهذه الموضوعات صعاليك الجاهلية، إلا أنهم أهملوا شعر سرعة العدو وشعر المراقب، واستحدثوا موضوعات جديدة نتيجة اختلاف العصر وملائمة لعصرهم وظروف حياتهم.

وقد استحدث شعراء صعاليك العصر الأموي موضوعات لم تكن عند سابقهم، لأن حياتهم اختلفت عن حياة سابقهم من شعراء صعاليك العصر الجاهلي الذين كانوا يعيشون في مجتمع قبلي لا حكومة له ولا سلطان، على عكس صعاليك العصر الأموي الذين عاشوا في مجتمع تحكمه قوانين الدولة وقواعدها، فكان وصف السجون وعذابتها من الموضوعات المستحدثة التي لم تكن في العصر الجاهلي، وقد وجدت هذه التجربة في العصر الأموي نتيجة تطور الدولة الأموية وسيطرتها، فقد أنشأ صعاليك العصر الأموي موضوعات تعكس حياتهم الجديدة.

وبعد إتمام المقارنة بين شعر صعاليك العصر الجاهلي والعصر الأموي من حيث البنية والمحتوى توصلنا إلى بعض النتائج، فكان من أهمها من حيث البنية هي أن أشعار صعاليك العصر الجاهلي وصعاليك العصر الأموي تشابهت من حيث غلبة المقطوعات الشعرية، وكذلك تميزت أشعار صعاليك العصر الجاهلي والعصر الأموي بالوحدة الموضوعية، فقد عبرت أشعارهم عن موضوع شعري كان انعكاس لموقف الصعلوك وما مر به، واعتمدت أشعارهم أسلوب الحكاية لحادثة معينة يعبر بها الشاعر عما في داخله لتلك الحادثة، وأما اللغة والألفاظ فقد تميزت أشعار صعاليك العصر الجاهلي بصعوبة الألفاظ وغرابتها، على عكس لغة و ألفاظ صعاليك العصر الأموي فقد اختلف مستوى الألفاظ في أشعارهم، وتميزت أشعارهم بسهولة الألفاظ وألفها، وتشابه صعاليك العصر الجاهلي مع صعاليك العصر الأموي في بعدهم عن التأنق اللفظي والتجويد والتفنن في التراكيب والكلمات نتيجة لحياتهم التي كانت تتميز بالانتقال والحركة والفوضى، وتشابه صعاليك العصر الجاهلي والعصر الأموي في غلبة النزعة القصصية؛ فكانت أشعارهم أشبه بسرد الحكاية، وتشابه صعاليك العصري الجاهلي والأموي في استخدام بحر الطويل، والبسيط، والوافر، والكمال، وكذلك تشابهوا في ترك التصريح فكان القليل من شعرهم مصرع والكثير منهم لا يلتزم التصريح.

أما من حيث المحتوى فقد وجدنا أن التشابه في حديثهم عن موضوع الفقر لكن الاختلاف في أن صعاليك العصر الجاهلي تحدثوا عن الفقر الذي كان سبباً في الجوع المهلك ونحول أجسادهم، أما صعاليك العصر الأموي فقد تحدثوا عن الفقر الذي كان سبباً في جعلهم أقل منزلة ونعيم من غيرهم، وكذلك تشابه صعاليك العصر الجاهلي والعصر الأموي في حديثهم عن التشرد والتأبد في الفيافي الموحشة والقفار البعيدة، وكان الاختلاف في أن صعاليك العصر الأموي كانوا يشعرون في تشردهم بالخوف والذعر والحرز على عكس سابقهم من صعاليك العصر الجاهلي، وكذلك تشابه صعاليك العصر الجاهلي والعصر الأموي في توعدهم وتهديدهم لأبناء قبيلتهم أو أبناء القبائل الأخرى، وكان الاختلاف أن صعاليك العصر الأموي قد استحدثوا تهديداً لعمال الدولة الأموية، وتشابه شعراء صعاليك العصر الجاهلي والعصر الأموي في الحديث عن مصاحبة حيوان الصحراء ومشاركتها حياتهم ووصفها والتغني بها.

وكان من أهم النتائج أيضاً إهمال صعاليك العصر الأموي لشعر سرعة العدو وشعر المراقب، فقد انفرد صعاليك العصر الجاهلية في الحديث عن سرعة عدوهم، وذلك لتفردهم بهذه الميزة فقد كانت من أهم الأسلحة التي اعتمد عليها صعاليك العصر الجاهلي، وترك صعاليك العصر الأموي الحديث عن سرعة العدو نتيجة اختلاف حياتهم عن حياة صعاليك الجاهلية، وكذلك تميزت أشعار صعاليك العصر الجاهلي بوصف المراقب المنيع وحصونهم العالية التي يصعب أن يبلغها أحد، أما صعاليك العصر الأموي فإن تحدثوا عن الصحراء والجبال إلا أنهم لم يتحدثوا عن المراقب، لأن الصعلوك الأموي لم يكن يقوى على ارتداد الأماكن شاهقة الارتفاع.

وقد استحدث شعراء صعاليك العصر الأموي موضوعات شعرية تميزوا بها عن صعاليك العصر الجاهلي، فقد سعوا إلى التعبير عن حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وإلى التعبير عن الحياة التي يعيشونها بمظاهرها المختلفة، فاستحدثوا موضوعات تواكب التغيير في عصرهم، فكان من أهم هذه الموضوعات وصف السجون وحياتها نتيجة الحياة الاجتماعية والسياسية القائمة في العصر الأموي، وكذلك مدح العمال والخلفاء والمتمردين طلباً في إثبات حسن سيرتهم والرضا عنهم، واستعطافاً وخوفاً مما قد يقع عليهم من العقاب، ونظم صعاليك الأموية أبياتاً في الحنين إلى الاستقرار، فكان الحنين زائداً إلى الاستقرار بعد حياة التشرد والمطاردة، والشوق إلى أهلهم وزوجاتهم وأبنائهم، نتيجة لما عاناه الصعلوك الأموي من التشرد أو السجن، وكان شعورهم بالذنب والندم نتيجة لاستحداث شعر التوبة والاعتذار والاستغفار، وذلك لمخالطة الدين الإسلامي نفوس بعض الصعاليك وتذوقهم لذة الإيمان بالله تعالى، فقد تاب بعض صعاليك الأموية وندموا على أعمالهم السيئة.

KAYNAKÇA

فهرس المصادر

- الأزدي، الشنفري ديوان الشنفري، جمعه وحققه: إميل يعقوب، دار الكتاب العربي، ط2، 1996.
- الأصفهاني، أبو الفرج الأغاني، تح: إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عباس، بيروت، دار صادر، عدد الأجزاء: 24.
- الأمدي، الحسن المؤتلف والمختلف، تح: عبد الستار فراج، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1961.
- بن براقه، عمرو عمرو بن براقه الهمداني، تح: شريف علاونة، عمان، دار المناهج، ط1، 2005.
- البستاني، فؤاد الروائع: الشعر الجاهلي والشنفري، بيروت، المطبعة الكاثوليكية 1927.
- البغدادي، عبد القادر خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تح: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي.
- البكري، أبو عبيد سمط اللآلئ في شرح أمالي القالي، تح: عبد العزيز الميمني، بيروت، دار الكتب العلمية.
- بلاشير، ريجيس تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، تعريب: إبراهيم كيلاني، دمشق، دار الفكر.

- ديوان تأبط شراً، جمع وتحقيق: علي شاکر، دار الغرب الإسلامي،
ط1، 1984.
- التبريزي، يحيى
شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، كتب حواشيه: غريد الشيخ، وضع
فهارسه العامة: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1،
2000.
- الجندي، علي
في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة دار التراث، طبعة دار التراث الأول
1991.
- حنفي، عبد الحليم
شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، الهيئة المصرية العامة للكتاب،
1987.
- خفاجي، محمد
الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، بيروت، دار الجيل، ط1، 1992.
- خليف، يوسف
الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، القاهرة، دار المعارف، ط3.
- الروضان، عبد عون
موسوعة شعراء صدر الإسلام والعصر الأموي، الأردن، دار أسامة،
ط1، 2001.
- بن الريب، مالك
ديوان مالك بن الريب، تح: نوري القيسي، "مجلة معهد المخطوطات
العربية"، مجموعة 15، ج1.
- الزركلي، خير الدين
الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط15، 2002.
- سركيس، إحسان
مدخل إلى الأدب الجاهلي، بيروت، دار الطليعة، ط1، 1970.
- السكري، الحسن
شرح أشعار الهذليين، تح: عبد الستار أحمد فراج، وراجعه: محمود
محمد شاکر، مكتبة دار العروبة.

- ابن السكيت، يعقوب شرح ديوان عروة بن الورد، تح: عبد المعين الملوحى، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
- بن السُّلَكة، السُّلَيك السُّلَيك بن السُّلَكة أخباره وشعره، تح: حميد ثويني، كامل عواد، بغداد، مطبعة العاني، ط1، 1984.
- الشجري، هبة الله مختارات شعراء العرب، ضبطها وشرحها: محمود حسن، مصر، مطبعة الاعتماد، ط1، 1925 عدد الأجزاء: 3.
- الصمد، واضح السجون وأثرها في الآداب العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1995.
- الضبي، المفضل المفضليات، تح: أحمد شاكر، عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط6.
- ضيف، شوقي تاريخ الأدب العربي: العصر الإسلامي، مصر، دار المعارف، ط7.
- ضيف، شوقي تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، القاهرة، دار المعارف، ط22.
- ضيف، شوقي التطور والتجديد في الشعر الأموي، القاهرة، دار المعارف، ط8.
- طريفي، محمد ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2004.
- طليمات، غازي تاريخ الأدب العربي: الأدب الجاهلي، دار الإرشاد بجمص، ط1، 1992.
- عطوان، حسين الشعراء الصعاليك في صدر الإسلام والعصر الأموي، دار الجيل، بيروت، ط3، 1997.

- علي، جواد
المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقى، ط 4، 2001،
عدد الأجزاء: 20.
- الفيرزوأبادي، مجد الدين
القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة،
إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر
والتوزيع، بيروت، ط 8، 2005.
- بن قتيبة، عبد الله
الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، القاهرة، دار المعارف، عدد
الأجزاء: 2.
- الكلابي، طهمان
ديوان طهمان بن عمرو الكلابي بشرح أبي سعيد السكري، تح: محمد
المعبيد بغداد، مطبعة الإرشاد، 1968.
- الكلابي، القتال
ديوان القتال الكلابي، تح: إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1989.
- مروة، محمد
الصعاليك في العصر الأموي أخبارهم وأشعارهم، بيروت، دار الكتب
العلمية، ط 1، 1990.
- الملوحي، عبد المعين
أشعار اللصوص وأخبارهم، منشورات دار أسامة.
- محمود، عبد المطلب
الإبداع والاتباع في أشعار فتاك العصر الأموي، دمشق، منشورات
اتحاد الكُتاب العرب، 2002.
- بن منظور، محمد
لسان العرب، القاهرة، تح: عبد الله الكبير، محمد حسب الله، هاشم
الشاذلي، القاهرة، دار المعارف، ط 1.
- الهذليون، الشعراء
ديوان الهذليين، ترتيب وتعليق: محمد الشنقيطي، القاهرة، الدار القومية
للطباعة والنشر، 1965.

بن الورد، عروة

ديوان عروة بن الورد أمير الصعاليك، دراسة وشرح وتحقيق: أسماء أبو
بكر، بيروت، دار الكتب العلمية، 1998

